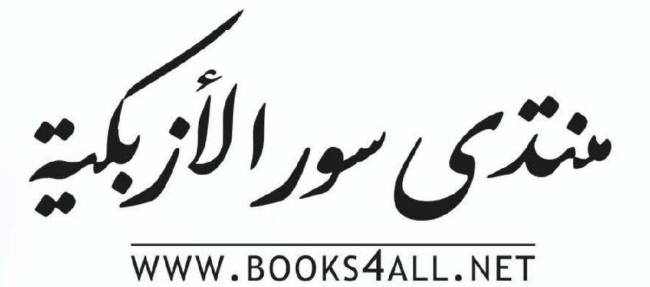
سيّد قطب

مهمة الشاعر في الحياة

منشورات الجمل


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

سيّد قطب

مهمّة الشاعر في الحياة

وشعر الجيل الحاضر

منشورات الجمل ١٩٩٦

ولد **سيّد قطب** في قرية موشا - أسيوط عام ١٩٠٦، مصر. درس في دار العلوم بالقاهرة وحصل فيها على الليسانس في فن التعليم (١٩٣٣). مارس كتابة الشعر والمقالة والقصة، كما برز كناقد أدبي في مطلع حياته. عبّر أيضاً عن أفكاره بخصوص الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر عبر مقالات عديدة، أبرزها مقالته التي نشرها في **الرسالة** ودعا فيها الى "التعري الكامل"، غير أنه ترك اهتماماته الليبرالية تلك وتحوّل الى الدين، الامر الذي دعاه تقريباً الى ترك كل نشاط أدبي، وبسبب نشاطه الديني هذا اعتقل وأعدم عام ١٩٦٦.
من مؤلفاته: **مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر** (١٩٣٤)، **الشاطيء المجهول** (١٩٣٥)، **التصوير الفني في القرآن** (١٩٤٥)، **المدينة المسحورة** (١٩٤٦)، **طفل من القرية** (١٩٤٦)، **أشواك** (١٩٤٧)، **مشاهد القيامة في القرآن** (١٩٤٧)، **النقد الأدبي - أصوله ومناهجه** (١٩٨٣).

سيّد قطب: **مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر**

رسمة الغلاف: خالد المعالي

Postfach 600501
50685 Köln . Germany
Tel: 0221 736982
Fax: 0221 7326763

تقديم

هذا مجهود ضئيل، صغير الحجم، أعد ليكون محاضرة فحسب، فلا يحتاج الى مقدمة تبين أغراضه وتوضح اتجاهه، فهو ذاته يصح أن يكون مقدمة لمبحث كامل في موضوعه هذا "مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر"! وسيكون..!

واذا كانت الظروف لا تهيىء اليوم الا طبع هذا المبحث الصغير دون غيره مما بين يدي، فاني أطمح في فرصة قريبة أكثر توفيقاً.

والذي أريد أن أقوله في مقدمة هذا المجهود الضئيل، الصغير الحجم: إن أهم ما فيه، اقتناعي بما فيه، اقتناعاً كاملاً متغلغلا في نفسي، حتى لهو جزء من عقيدتي، أدافع عنه كما يدافع كل مؤمن عن عقيدته!.. وإذا لم يكن لي فضل "الرسالة" بهذه العقيدة الأدبية! فاني مقتنع بأن أكون من أشد أنصارها دفاعاً عنها، وأن أحاول ما استطعت توطيد أركانها، والزيادة في بنيانها. وإني لفخور بذلك بقدر ما أنا مقتنع به!

هذا أهم ما أريد أن أقوله عن الموضوع، مضيفاً إليه أنني تعمدت أن أختار أمثلتي من مجهود الشبان الناشئين، الذين لم يعرفوا في عالم الأدب إلا قليلا، وأنني لمستريح إلى أن أكون واسطة تعارف بين المشتغلين بالادب، وبين خمسة من الشعراء الحدثين الذين تجرفهم الشهرة الزائفة والصحيحة في تيارها، وقد تغشى عليهم فلا يسمع لاصواتهم صدى، وسط ضجيج الشهرة وصخب المشهورين!

وقد اخترت للاستاذ العقاد قطعة واحدة، لم أكن مختاراً في اختيارها بل مضطراً لذلك اضطراراً!، لاني لم أجد في موضوعها ما يماثلها، في كل ما قرأت من الشعر العربي القديم والحديث، وكنت

اصور المثل الأعلى في نقطة خاصة، وكانت هذه القصيدة، نموذجاً لذلك المثل الذي أريد!

ولست بهذا وذلك حاقداً على المشهورين، أو محاولاً تشويه مجهوداتهم، فالشباب لايعرف الحقد، لأن الحقد طبيعة الضعفاء، الذين لا يستطيعون، فيحقدون!... انما أريد فقط، أن أشق للناشئين طريق التعارف، وأريد أن أطلع الأمة أنها بخير! وأنها لن تصب بالعقم الفني بعدما أخرجت هؤلاء المشهورين!

يقول الدكتور طه حسين: "انك لتبحث عن الشاعر الشاب الذي نشأ في هذه الأعوام فصرف جماعة من الشباب عن شوقي، وحافظ، ومطران، فلا تجده، وعن الكاتب الشاب الذي ظهر فاستحدث مذهباً في النثر صرف بعض الناس عن هيكل والمازني والعقاد فلا تظفر به".

ولكن الدكتور في هذا ينسى فعل الزمن الطويل الذي جعل لهؤلاء الأدباء تلك المنزلة، وينسى طبيعة العصر الذي نشأ بعضهم فيه وظروفه العامة والخاصة وينسى عمل هؤلاء المشهورين على تشجيع بعضهم البعض، والاشادة بذكرهم، وتقرض الثناء بينهم، وعمل بعضهم - على محاربة الناشئة ومنعهم من الظهور...

وأريد أن أقول للدكتور الفاضل: ان هذا الشباب الناشىء المغمور لن يقنع بقسمته تلك، ولن يهن أمام العقبات، وسيعمل لنفسه كما عملوا لانفسهم، ويخلص لمجهوده، كما أخلص لمجهودهم من قبل، فلم يكافئوه على اخلاصه. وسيمتاز عنهم بألا يكون أثراً، وبأن يكون معهم، أفسح صدراً مما كانوا معه. والمستقبل كفيل!!!

المؤلف

مهمة الشاعر في الحياة

لقد كان من بواعث اغتباطي، أن أشرفت على القاء هذه المحاضرة، بمدرج "دار العلوم" مهد العلم والأدب، الذي قال فيه المرحوم الامام الاستاذ الشيخ "محمد عبده": ان باحثاً مدققاً، لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان، وتحيا في "دار العلوم".

ولئن كنت قد قدمت المحاضر "سيد قطب" بأنه طالب يسرني أن يكون أحد تلاميذي، فانني أقول اليوم - وقد سمعت محاضرته - انه لو لم يكن لي تلميذ سواه، لكفاني ذلك سروراً، وقناعة، واطمئناناً إلى أنني سأحمل أمانة العلم والأدب، من لا أشك في حسن قيامه عليها.

لقد كتبت منذ اسبوع كلمة قدمت بها كتاب "تاريخ اللغات السامية" لنجم آخر من نجوم "دار العلوم" هو "جودت الطحلاوي" وقد قلت في تلك الكلمة: إن في "دار العلوم" اليوم نهضة علمية أدبية، يحمل لواءها نفر من أعز أبنائنا علينا. وإنني حين ذكرت ذلك كنت أفكر في رهط، أعد "سيد قطب" في طليعتهم.

يعجبني في كاتب هذه المحاضرة جرأته الحازمة، التي لم تسفه فتصبح تهوراً، ولم تذل فتغدو جبناً وإن هذه الجرأة الرشيدة التي دعته الى الاستقلال بالرأي في بحثه - حتى ولو خالفنا في بعض ما نعتقده من الآرَاء الأدبية - لهي التي تجعله أحب الى قلوبنا. ولا أتردد هنا في أن أعلن أنه قاس على "شوقي" قسوة لا أغفرها له. لقد نقب في شعر شوقي، حتى أخرج منه سقطات لا يسلم منها فحل من فحول الشعراء في أي عصر أو أية أمة. وليس ذلك من الانصاف، لان لشوقي كنوزاً عظيمة من الشعر الخالد، كان جديراً بالمحاضر أن يضعها في كفة، وتلك السقطات في كفة أخرى ولست أشك في أنه إن

فعل رجح كفة الحسنات ترجيحاً. على أنني لو سلمت له جدلاً بأن جميع ما ذكر عن شوقي صحيح، لكان من القلّة، إزاء بحوره الزاخرة، بحيث لا يقدح في منزلته، ولا ينزله عن عرش الشعر الذي قلما نازعه فيه منازع.

و"سيد قطب" باحث ناشيء، تعجبني عصبيته البصيرة، واشادته بذكر الشعراء الناشئين من أمثاله. وهو جد موفق في اختياره لهم، وليس أقل توفقاً في اختياره من شعر نفسه، وان ستره تواضعه وراء ستار لـ"شاعر ناشيء".

وقصارى القراء، أن أقول لهم: إنني أعد "سيد قطب" مفخرة من مفاخر "دار العلوم"، واذا قلت "دار العلوم" فقد عنيت دار الحكمة والادب.

٢٨ فبراير سنة ١٩٣٢

محمد مهدي علام

أستاذ التربية بدار العلوم

ملاحظة:

مع احترامي الكثير لما ذكره استاذي عن شوقي

اني أميل الى أن أقرر: أنني فيما ذكرته في محاضرتي لم أكن بصدد اصدار حكم على شوقي، وانما اخترت أمثلة من شعره، واذا كنت قاسياً في تعليقي، فتلك قسوة على المثال الذي اخترته لا قسوة على شوقي نفسه. وان كان رأيي في شوقي كله، بعد دراسة كاملة لكل ما أنتجه، لا يختلف كثيرا عن تعليقي على الأمثلة المختارة وبهذه المناسبة أعد بأن أكتب نتيجة دراستي لشوقي في محاضرة أو كتاب آخر، يتسع للبحث والدراسة والاستقصاء، ويكون رأيي اذ ذاك مؤيداً بكل ما أنتجه شوقي بلا استثناء.

وأنا أعود فاشكر لأستاذي الفاضل أن حفزني الى إخراج مبحث جديد.

مهمة الشاعر في الحياة

الشعر والفنون الجميلة والفلسفة

مهمة الفنون الجميلة:

الشعر أحد الفنون الجميلة - أو "المثل الرفيعة" كما يسميها العرب(١) وأكبر مهمة لهذه الفنون جميعها أن تقوم واسطة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، وان تقربنا من المثل الاعلى، الذي نرنو اليه، كلما عز علينا بلوغه في عالم الحقيقة.

وهي في كل صورها نزاعة الى الكمال المنشود، وان اختلفت طرائقها في هذا النزوع. فهي إذ تصور الخير ممحضا خالصاً، تدعو الى هذا الخير المحض الخالص. وهي اذ تصور الشر خالصاً كذلك تدعو للاشمئزاز منه وهجرانه. وهي تجنح في بعض الأحيان الى تصوير الخير والشر يتنازعان، ولكنها تشير اليك من طرف خفي، أن تأخذ بناصر الخير، ليفوز، ويتغلب على منافسه الخبيث. **ووسيلة هذه الفنون جميعها، أن تخاطب العاطفة، فيما تريد أن تبثه من مبادئ أو تصوره من احساس. وهي تختلف في وسائل المخاطبة، وكلما قلت هذه الوسائل كان الفن أقرب الى العاطفة. وأدنى الى طبيعة الجمال الرقيقة.**

---

(١) وأنا أميل الى تسميتها بالمثل الرفيعة، لأن في هذا الاسم اشارة الى مهمة الفنون الجميلة وهي الدعوة الى المثل الأعلى.

منزلة الشعر من الفنون الجميلة

وقد تكون الموسيقى على ذلك هي الاولى في عالم الفن الجميل، لأنها تخاطب العاطفة بأقرب وسيلة، وبواسطة مبهمة غير محدودة، فما هي الا نغمات غامضة، تسري الى النفس؛ لا تستطيع أن تعبر عنها تعبيراً دقيقاً، وان استطعت أن تشعر بها شعوراً عميقاً. ثم يلي الموسيقى في ذلك الغناء، ويجيء الشعر في المرتبة الثالثة ثم يتلوه التصوير فالنحت أو يتقدمان عليه اذا لاحظنا غموضهما عنه في التعبير.

وإذن فللشعر قيمته بين هذه الوسائل التي تربطنا بالمثل الاعلى وتدنينا منه رويداً رويداً. وليس لغواً في هذه الحياة يعبث به العابثون، ويرتقب من الدجاجلة والمهرجين. وليس بضاعة مزجاة تباع وتشترى في الاسواق أو تتخذ حبائل لقضاء المصالح والاسترزاق!

وإذن فالشعر كلما قلّت الوسائط بينه وبين العاطفة في الخطاب كان أنبل وأسمى وكان أدخل في كيان الجمال، وأكثر حساسية وشعوراً.

وإذن فالشعر الذي يغرق في النظريات المحدودة، والحكم الجافة، ليس شعراً بالمعنى المراد، والشعر الذي يخاطب السمع والبصر، مقتصراً عليهما، لايعدو أن يكون شعراً سطحياً، إذا عزت الاسماء، فلم نجد لفظة غير لفظة الشعر نطلقها عليه!

انما هو الشعر الذي يحدثك في أعماق نفسك، ويصف لك الشعور الحساس وصفاً غامضاً مبهماً، يدع لشعورك أن ينطلق، ولخيالك أن يتيه، لأنه لا يضع أمامك مقاييس وحدوداً، ولكنه يدعك في ميدان فسيح من عالم الروح الرحيب.

الشاعر والفيلسوف:

ولقد يؤخذ من ذلك أننا نوافق تلك الجملة المحفوظة: "أعذب الشعر أكذبه!" والتي يفهم منها الناس أن الشعر والدجل شيء واحد وأن الشاعر والمهرج اسمان لمسمى!

لا. لا نريد ذلك، بل نحن نعتقد أن الشاعر أعرف بالحقيقة من الفيلسوف. ولكنه يختلف عنه في التعبير لأنهما يختلفان في إدراك هذه الحقيقة، وفي طريقة إدراكها.

فأما الفيلسوف، فيأخذ مكانه في معزل عن الحياة بقدر ما تهيء له طبيعته، ويشرف عليها من عل، ثم يسجل حركاتها، ويحصي ظواهرها، كما يتصورها بفكره وعاطفته جميعاً.

وأما الشاعر فينغمس في الحياة، يحس باحساسها، ويشعر بشعورها، ويتفاعل وإياها، ثم يتحدث عنها بما يحس، أو بما تريد هي أن تحدث عن نفسها!

ولنا أن نقول: أن الذي يشعر، أصدق من الذي يشاهد. وإن كان الثاني يلوح أدق في التعبير. ذلك أن الشاعر يسرح في جو غير محدود، وأما المشاهد، فهو حاسب دقيق. لديه وسائل القياس. وعدة الوزن والمكيل في جوه المحصور المعلوم.

من هو الشاعر؟

الشاعر الحقيق بهذا اللقب إذن، هو الذي يحس بالحياة إحساساً عميقاً، ويترجم عنها للأحياء. هو الذي صاغته الحياة ليكون واسطة بينها وبين أبنائها الآخرين. فهو انسان ممتاز. لأن الحياة صاغته على مثال خاص، ليؤدي لها مهمة خاصة، لا يضطلع بها كل فرد من الافراد. وهو لكي يؤدي مهمته على الوجه الأكمل، لابد أن تتوافر فيه صفتان أساسيتان.

الأولى: أن يكون إحساسه بالحياة أدق وأعمق من إحساس الجماهير، على شريطة ألا يقطع الصلة بينه وبين الجماهير. بحيث يكون ذلك الاحساس واضحاً مميزاً عن إحساس كل من الآخرين.

الثانية: أن يعبر عما يحسه بهذه الطريقة، تعبيراً أسمى من تعابير الجمهور. مظهرا في تعبيره هذا نفسه، وتأثراتها بما شاهدت وأحست. لا أن ينقل لنا الصور كما تراها سائر العيون. وبعبارة أخرى أن تكون له في الحياة فلسفة خاصة به. منشؤها إحساسه الشخصي، يفسر الحياة على ضوئها، ويظهر للناس بعنوانها.

وتجد بعض من يدعون أنفسهم، أو تدعوهم الجماهير شعراء. تجده يصف لك الليل، فلا يعدو أن يقول: ان الجو ظلام، والحركة هادئة والأحياء كلهم ساكنون!

وهو إذ يقول ذلك في ثوب خلاب من الالفاظ، وبريق وهاج من الاسلوب، يعد نفسه أدى واجبه كشاعر، وخلص من ذلك الواجب السامي الذي ناطته به الحياة!

ولكنا لا نريد أن نقبل منه هذا الاحساس السطحي الزهيد الذي لا يبعد على كل انسان أن يدركه، لانه يتعلق بالعين والأذن ولكل فرد من الناس عين وأذن!

انما نريد أن يحدثنا الشاعر عن أثر ذلك الهدوء في نفسه، وروعة هذا الظلام في خاطره، ورهبة ذلك الخشوع الشامل الاطراف.

نريد أن يصوهر لنا ماوراء الماديات المحسوسة، مما يبعثه الكون الساهي في نفسه، وما يوحيه الليل الرهيب من ذكرياته وأشجانه، ومقدار ما يحسه من تغلغل الليل في مجاهل الأبد، ومقدار ما أودعته الطبيعة من أسرارها، وما قصدت اليه من وجود هذا الليل فيها.

نريد أن يقف أمام هذا الليل كما وقف أمامه شاعرنا الناشيء "علي أفندي عبدالعظيم" من قصيدة طويلة في الليل، يقول فيها:

مد الظلام على الآفاق سلطانا
وطوق الليل وديانا وكثبانا

وبات يسبح فكري في غياهبه
حتى لتحسبه في الكون ربانا

وراح يصطحب الازمان مقتحما
ما لم يحن وقته منها وما حانا

ثم يخاطب الليل:

ما أنت يا ليل الا مسرح حجبت
أستاره خلفها أسرار دنيانا

طويت أسرار هذا الكون في سدف
لا نستطيع لها كشفاً وتبيانا

يا ليل بح لي بها ان كنت تعلمها
يا ليل حسبك اخفاء وكتمانا

أكان صمتك عن عي وعن حصر
أم كان صمتك اغضاء واهوانا!

أم أنت تجـــهلهـــا مـــثلي فـــتنكرها

أم أنت تبـــعث فـــيـــهـــا الفكر ادمـــانا!

مـــشـــاكل تتـــرك الالبـــاب حـــائرة

تثـــيـــر ابحـــاثهـــا شكا وايمانا!

* * *

يا ليل كم فـــيك آيات مـــحـــجـــبـــة

يظل فـــيـــهـــا شـــهـــاب الفكر حـــيـــرانا

تطوي النـهــــار وتطوي في تبلجــــه

فـــمـــا لركـــبك لا ينفك جـــولانا؟

وعـــيت أخـــبـــار من مـــروا. فـــهل نبـــأ

عنهم ببطن الثـــرى تفـــضي به الآنا؟

جـبت الحـيــاة أتدري مــا مــصــائرها

أم كنت عن ســـرها يا ليل غـــفـــلانا؟

قل لي: أتربطـهـــــا بالكون رابطة

تبـــــقى اذا دام أو تفنى اذا بانا؟

اني لاســـمع وحـــيـــاً منك يلهـــمني

ولست آلوه تصـــديقـــاً وايقـــانا

إن الحـــيــاة ســتـبــقى جـد خـالدة

تفني وتعـــمـــر أكـــوانا فـــأكـــوانا!

ذلك النوع من احساس الشاعر بالليل، ووقفته أمام روعته الشاملة وهو احساس ينبئنا في الوقت نفسه عن جانب من فلسفة الشاعر في الحياة ونظرته اليها. وليس مجرد كلام يقال!

ولقد تجد الشاعر المحسوب على الشاعرية ظلما وبهتانا، يحدثك

عن حبيبته، فاذا هو موظف في قلم تحقيق الشخصية، أو سلك الشرطة السري، يشبه أحد المجرمين!

اللون قمحي، والعيون عسلية، والعنق كذا، والرجل والذراع والخصر والجيد...الخ. فهذه الحبيبة في نظره عبارة عن هذه الاشلاء الممزقة من العيون والخدود والنحور، والارداف والخصور. وهي ليست انسانة حية، يشملها معنى روحي واحد، يتراءى للشاعر وحدة جامعة... هي في نظره كتلة لا قوة! فهو يعبر عنها بالوزن والقياس، لا بالحس والشعور، فهو ليس محبا لهذه المخلوقة، ولكنه موكل فقط بوصف ظواهرها، التي يراها كل انسان.

ولن نقبل نحن من شاعر مثل هذا الوصف الممزق لحبيبته انما نريد منه ان يحدثنا عنها: كيف يراها، وكيف تتمثل في خاطره، وكيف شعوره بها... الخ

وانا لنعجب في هذا المعنى الشامل بقطعة للأستاذ العقاد، ونعدها مثلاً أعلى في هذا المقام:

يا رجائي وسلوتي وعزائي
وأليفي اذا اجتواني الأليف
نبئيني فلست أعلم ماذا
منك قلبي بحسنه مشغوف
كل حسن أراك أكبر منه
ان معناك تالد وطريف
لست أهواك للجمال وان كا
ن جميلا ذاك المحيا العفيف
لست أهواك للذكاء وان كا
ن ذكاء يذكي النهى ويشوف

لـســت أهــواك لــلــدلال وان كـــــــــــا

ن ظريفـــا يـصــــبـــو الـيـــه الظريف

لسـت أهـواك لـلـخـــــصـــــال وان رف

عــــلـــيـــنـــا مـــنـــهـــن ظـــل وريـــف

أنــا أهــواك "أنــت" فــــــــــــــلا شــيء

ســــــوى "أنــت" بـالـفـــــؤاد يـطـيـف

ان حــــبــــا يا قلب ليس بمنســـيك

جــمـــال الجــمـــيل حب ضــعــيف

هكذا "أهواك أنت" هي بعينها، لأنها هي بعينها، وهذه الاجزاء الجميلة فيها - الجمال والذكاء والدلال والخصال - لم تكن لتحب لديه الا لانها فيها، فتكسب هذه الاجزاء حبه من حبه لحبيبته، التي هي وحدة جامعة، وروح شاملة، تدركها النفس أكثر مما تدركها الحواس.

نريد هذا النحو من الشعر، والا يكن، فان الشعر براء من الوصف المشوه الذي لا يوصف به الا القتلة والمجرمون!!

* * *

ولقد نعلم أننا سنجد من الكثيرين مخالفة، كبيرة أو صغيرة وأن تقديرنا للشاعر وما نطلبه في الشعر؛ سيبدو كثيراً مبالغاً فيه وانما يبعث إلينا هذا الاعتقاد أن تقدير الشعر لا يزال حتى اليوم في أولى درجاته، رغم الجهود التي بذلها المجددون في تصحيح ذلك التقدير، ولا تزال هناك طوائف من الجماهير، والمتصدين للبحث في الأدب أنفسهم، تقنع من الشعر بأزهد درجاته، ظانة أنه الشعر الغالي الثمين!

وكل ما بيننا وبين هؤلاء من فروق في تقدير الشعر، أننا لا نقنع

من الشاعر بالتصوير السطحي، والاحساس العادي، بينما هم يقنعون.

وأننا لا نتقيد بالحدود التي سنها القدماء وغير القدماء في تقديرهم ونقدهم، بينما هم لا يزالون مقيدين.

وأننا نعتقد أن المثل الاعلى للشعر وغير الشعر، انما هو في المستقبل لأن الكمال أو ما يقاربه يتراءى في الامام، وقد نكون اليوم أقرب الى هذا المثل من العصور السالفة. بينما هم يرون أن المثل الاعلى في الماضي، ولا يمكن أن يكون بحال، في الحاضر ولا في المستقبل، ولا سيما في الشعر الذي يقيسونه بمقياس القدم كالنبيذ!

فالشعر الجاهلي أفضل الشعر، ويليه صدر الاسلام فالأمويين فالعباسيين، وهكذا حتى تجيء إلى عصرنا هذا الحاضر فاذا الشعر - في نظرهم - متأخر منحط، لا بل كل شيء غير الشعر كذلك. فنحن اذن ملزمون في عرفهم، أن نقدس كل ما يتصل بالماضي وأن نفنى فيه حتى نفقد أنفسنا، وأن نقلد الشعراء السابقين، كما صنع كثير من شعرائنا المشهورين الآن، الذين ارتفعوا في غفلة من الزمان!

تلك هي الفروق بيننا وبين هذه الطائفة، وهي التي تجعلنا نعتقد أن لابد من مخالفتهم فيما نتطلبه في الشعر، وفي تقديرنا للشعراء.

ثم نحن في الوقت نفسه نكاد نيئس من التفاهم مع هؤلاء، لأنه ليست للفنون مقاييس محدودة، وتعاريف معلومة. حتى يسهل الاقتناع أمام البرهان. وإنما هي راجعة الى الذوق والشعور قبل كل شيء: فأنت لكي تتفاهم مع آخر على مسألة في نقد الفن، يجب أن يكون بينكما اتصال شعوري. وتشابه نفسي، حتى تستطيعا ايجاد أساس للتفاهم فاذا لم يكن ذلك فلا فائدة في الجدل، ولا جدوى في المناقشة. وليس هناك من طريقة للتفاهم اذ ذاك الا الأمثلة. وهي أيضاً تختلف في التقدير. فأنت تعجب بقصيدة، لا يعجب بها سواك ولا تستطيع

افهامه وجهة نظرك بالتحديد.

ومع هذا كله فسنحاول قبل أن نمضي طويلاً في موضوعنا أن نبحث في هذه الفوارق. وأن نقارب بين وجهتي النظر. فاذا لم يجد ذلك، فحسبنا هذا الشباب الناهض المتفتح للحياة، القابل للتفاهم بلا تعصب طويل.

الشاعر والمصور:

يقولون لنا: إن الشاعر ليس مكلفاً أن يحدث عن خواطره في كل مرة، وأن يرسم لنا الأثر الذي خلفته المؤثرات في نفسه. وبحسبه أن يجيد تصوير ما يراه ويسمعه، كما رآه وكما سمعه. ثم يسألوننا في لهجة المنتصر الظافر: أليس الذي يصنع ذلك يكون مصوراً، والمصور في هذا العهد، يجد الكثيرين ممن يفضلونه على الشاعر؟

وهنا غلطة كبرى لا بد من تصحيحها: تبتدىء هذه الغلطة في الخلط بين الشاعر والمصور وطريقتهما في التعبير، وتنتهي في تقدير المصور ذاته واعتباره ناقلاً عن الأصل بلا تصرف ولا ابتكار.

فأولاً ليس المصور والشاعر سواء في طريقة تعبيرهما: فالشاعر لديه متسع لتسلسل المعاني وعرضها من البدء للنهاية، أما المصور فلا يستطيع أن يعرض الفكرة من مبدئها الى نهايتها بل يعمد إلى أظهر حلقة منها، وأبرز نقطة، فليتقطها ويصورها، ويدع للناظر بعد ذلك أن يبحث عن أوائل السلسلة، ويتتبع أواخرها. وهذا هو الفرق الرئيسي بين المصور والشاعر، الذي يفرقهما، ويختط لكل منهما طريقه في التعبير.

وثانياً أن المصور يملك من وسائل التصوير الحسي مالا يملكه الشاعر فلديه الريشة والزيت والحبر والفحم والبستيل...الخ. والمحاكاة له سهلة ميسورة، أما الشاعر فلا يملك إلا ألفاظاً يصوغها،

لاتستطيع بحال أن تخرج صورة حسية، فان أخرجتها كانت ولا شك مشوهة، وخير منها ألف مرة، صورة فوتوغرافية على "كارت بوستال"!

هذا كله من وجهة أولى، ومن وجهة ثانية، **أن المصور الفنان هو الذي يخلع على الصورة ظلاً من نفسه وخياله، وتظهر في صوره شخصيته واضحة متميزة.** أما الذي يكتفي بتقليد الأصل أو التصرف في النقل فقط، فهو المصور المبتدىء الذي لم يرتفع بعد إلى درجة الفنان.

هذا هو المفروض في المصور، بله الشاعر. فاذا نحن سلمنا جدلاً أن الشاعر والمصور سواء، كانت النتيجة أن الشاعر الذي ينقل الصورة كما هي لايعد فنانا... **فالذين يريدون من الشاعر أن يكون مصوراً ناقلاً فقط، انما يخرجون به أولاً عن طبيعته الأولى، طبيعة الشاعر مصور العواطف، أو المناظر كما يراها هو لا كما تراها سائر العيون. وهم ينحطون به ثانية الى مرتبة صغار المصورين. الأمر الذي لا نطيق أن ننزل الشاعر الى مستواه كما يريدون.**

ولقد يكون النموذج في هذا الموضع خير ايضاح لما نريد. وها نحن أولاء نقدمه. فلقد وقف الشاعر الناشيء "عبد العزيز عتيق" أمام ربع دارس مهدم الجوانب، يراه الغادي والرائح، فما هو الا منزل قديم في نظر الرائحين والغادين، لا يستلفت الانظار، ولا يوحي للخواطر بشيء - اللهم الا الاشمئزاز والاحتقار - أما في نظر الشاعر فهو شبح كاسف شجي، يتيه في تأمله الخيال، ويوحي بشتى الأحاديث. وها هي ذي القصيدة:

الطلل البالي

هو ربع طامس العهد خرب

مظلم الارجاء مفقود القطين

كـــان بالأمس يوشـــيـــه الصـــبـــا
وعـلـى دارتـه الـعـــــز حـــبـــــا
لـهف نفـــسي مـــاله اليـــوم خـــبـــا
ضـــــوءه الزاهـي ولـى واحـــــتـــجب
بـين طيـــــات الليـــــالي والسـنين؟
تتــــمــــشى بينه الريح فـــــلا
تـلـتــــقي الا بـأمـــــواج البــــلا
عـــاصـــفـــات المد تذرو مـــا عـــلا
بينمــــا الربع حـــزين مكتــــئب
ســـاعـــر الأحـــشـــاء مكتـــوم الانين
خـــيم الصـــمت عليـــه والعـــدم
وحـنـاه الـدهـر احـنـاء الـهــــــرم
وهـو جـــــــاث لـم يـهـــــوم أو ينـم
وصـــــروف الـدهـر ترنو عن كــــثب
عله يـغـــفـي فـــتـــصليـــه المنون
مـــسـرح الماضـي ورمـــز البـــسـمـــات
مـــوطن الجـــرذان مـــأوى الحـــشـــرات
مطلع الافـــلاك. مـــهـــوى النيـــرات
عـــجـــبـــاً يأيهـــا الدهر عـــجب
فـــــعلك الطـائش بـالـربـع الامـين
زرتـه والـنـفـس يـومـــــــاً ثـائـرة
فـــاذا الربـع عـــيـــون نـاظرة
واذا الاشـــبـــاح تـهـــفـــو نافـــره

واذا الهـــاتف مني يقـــتـــرب

يـرسـل الحـكمــــة فـي رفـق ولـين:

أيـهـــا الواقـف بـالـربـع اتـنـــد

واحـــبس الانفـــاس اجـــلالا فـــقـــد

غـــالنا غـــول الفنـاء المســتـبـــد

فـــغـــدونا مـــثل نـار من حطب

تخـدع السـاري وتخـبـو بعـد حـين

فـــتنظر هـل ترى الا رســـومـــا؟

عـــابســـات تملأ النفس وجـــومـــا

أكـــبـــر الدهر عليـــهـــا أن تدومـــا

فـــاذا القـــائم منهـــا منشـــعب

واذا الربـع يغــــشـــيـــه السكون

هذا هو "الطلل البالي" كما يراه الشاعر، فيه همس ووسوسة، وفيه أشباح نافرة، وصروف الدهر تترقب اغفاءه لتصليه المنون...الخ. وهو ليس بناء فحسب مهدم الجدران!

على أن الاوصاف والتشبيهات الحسية، قد تستساغ، وقد ترتقي الى الدرجة الفنية في بعض الاحيان، وان يكن النادر من الشعراء من يستطيع الوصول الى هذه الدرجة، ولا نكاد نعرف في الشعر العربي احداً استطاع ذلك غير ابن الرومي، الذي كان مصوراً أكثر منه شاعراً، أو شاعرا مصورا على أصح تعبير.

والتصوير الحسي يبلغ درجة الفن العالي حين لا يجمد عند الصور الحسية، بل يدع للخيال سبيلا للعمل حول هذه الصور، يتدرج منه الى التأثر الوجداني. وهذا الشاعر السوري "فؤاد الخطيب" يصف بلداً أثرياً بقوله:

بلدأ كـأن يدا دحـتـه فـخـر من

قلل الجـبـال ممزق الاوصـال

فـهنا الصخور على الصخور تحطمت

وهناك منه حـقـيـقـة كـخـيـال

أو كـالطلاسم فـوق مـهـرق سـاحـر

في كل زاوية خـبـيـئـة حـال

مـوت تطوف به الحـيـاة ومـوقف

خـشـعـت لديه طوارق الاهوال

تمضي القـرون على القـرون كـأنها

وقـد انحـدرن اليـه بضع ليـال

هذه صورة حسية لا تقف عند الحس الجامد، بل تدع للخيال أن يتصور اليد تدفع هذا البلد من قلل الجبال فيخر ممزق الاوصال ثم يتدرج من ذلك الى تشبيه هذا البلد بأنه كمهرق الساحر "في كل زاوية خبيئة حال"...الخ مما لا أريد أن أشوهه بشرحه لأن الصورة في درجة سامية من الفن العالي النادر المثال في الوصف الحسي.

أما الغالب فيمن يعمدون الى هذه التشبيهات الحسية، فهو أن يعطونا عدة أشباه للشيء الواحد لا تزيدنا به تعريفا، وليس بينها وبينه من صلة الا ما تراه العين من اللون والحجم والشكل. أو ما تسمعه الاذن من النغم والرنين.

فابن المعتز حينما يقول في تشبيه الهلال:

انظر اليـه كـزورق من فـضـة

قـد أثقلتـه حـمـولة من عنبـر

لا يزيد على أن يعطينا نسخة من صورة الهلال لا علاقة بينها وبينه في طبيعته الاصيلة. ولا رابط بينهما غير ما تراه العين من

البياض والسواد. ومع ذلك فهل أحسن في نقل نسخة من الهلال؟ يكفي للجواب على ذلك أن تتصور الهلال في خيالك، ثم تتصور بجانبه زورق ابن المعتز. لتدرك الفارق الكبير، وتعلم مقدار ما شوه ابن المعتز من منظر الهلال الجميل!

وكذلك التشبيه المشهور:

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت

وردا وعضت على العناب بالبرد

انما يحشر لنا مجموعة لأشياء بيضاء وحمراء. ليس بينها من علاقة الا علاقة الالوان. والا فأية علاقة بين الدمع واللؤلؤ. وبين العناب والانامل. وبين السن والبرد. الا علاقة العين المجردة. وهي علاقة سطحية بين المشبه والمشبه به. ان أجازتها القواعد وقبلتها فالشعر الذي يبحث عن العلائق الخفية العميقة في طبيعة الاشياء لا يقبلها بحال.

ومثل ما تقدم ما يقوله شوقي الشاعر عن السفين في خضم البحر:

نازلات في سيرها صاعدات

كالهوادي يهزهن الحداء

فأية رابطة هنا الا رابطة الحركة في النزول والصعود؟ - وهي مع ذلك غير دقيقة - وعلاقة قطع المسافات على السفينة وعلى الناقة؟ ولكن أية علاقة وثيقة بين طبيعة السفن وطبيعة الهوادي؟ ماذا يجمعهما في عالم النفس الداخلي الحساس الذي يعني بالصلات العميقة لا بالطلاء والقشور؟

أو قوله عن البدر:

وافى بك الافق السماء فأسفرت

عن قفل ماس في سوار نضار

فبغض النظر عن القفل والسوار "ماساً وذهباً"! والفرق بين شكليهما وشكل البدر في السماء! بغض النظر عن ذلك، فنحن لا ندري ماذا نحس من روعة خيال هذا الوصف الابيض والأصفر؟!

وقد يكون التشبيه أحوج الى الدقة في بيان زيفه مما سبق لأن الزيف يتصل بالاحساس النفسي فيه، كقول شوقي الشاعر يشبه توت عنخ أمون داخل أكفانه:

وكأنهم كمائم   وكأنك الورد الجنين

فقد يلوح للنظر جميلاً، أن يشبه توت عنخ أمون في كفنه، بالوردة في كمها. ولكن أية علاقة في هذا غير علاقة العين المجردة بين ميت ملفوف في كفنه، ووردة ملفوفة في كمها؟ أية علاقة بين ميت يستقبل الفناء ولا تنبض به حياة، ووردة في كمها تتفتح للحياة وتنبض بها عروقها؟

ان الاحساس السليم لا يستسيغ الجمع بين النقيضين في الطبيعة. وان لاح أنهما متشابهان في النظرة البصرية العجلى، التي لا تشعر ولا تحس.

ولقد تعظم النازلة، ويشتد خطب الشعر والشعور، حين يبدو لواحد من هؤلاء المحسوبين على الشعر، أن يلج في تشبيهاته هذه، فلا يقنع منها بتشبيه، حتى يأتي بملابسه، وبملابس ملابسه، كما صنع ابن المعتز في هلاله حين قال:

انظر الى حسن هلال بدا

يهتك من نوره الحندسا

كمنجل قد صيغ من فضة

يحصد من زهر الدجا نرجسا

فعلاوة على أنه لا تشابه بين الهلال والمنجل الا في الشكل الخارجي، ولا صلة بينهما في الطبيعة، الا صلة النظرة البصرية.

علاوة على ذلك راح صاحبنا يصنع المنجل من الفضة، ثم هذا المنجل لا بد له من شيء يحصده؟ فماذا يحصد اذن؟ يحصد النجوم! ولكن النجوم لا تحصد! اذن فلتكن نرجساً، وليكن هذا النرجس زهراً، وليكن هذا الزهر نابتاً في الدجا، وتكون هناك استعارة في الدجا هذه!!

ثم ماذا وراء ذلك كله من العاطفة والاحساس، أو من إدراك شيء من خفايا الحياة، وأسرار الطبيعة؟ لا شيء الا الهذر والهذيان.

ومثل هذا بالذات ما يقوله شوقي:

والغبار الذي على صفحتيها

دوران الرحا على الاجساد(١)

حينما شاء له احساسه أن يشوه قول المعري في بيته الخالد في قصيدته الخالدة:

خفف الوطء ما أظن أديم

الأرض الا من هذه الأجساد

وأسخف من هذا وأحط معظم ما يعرف بحسن التعليل، امكان التشبيه!

فلما قال المتنبي:

فان تفق الأنام وأنت منهم

فان المسك بعض دم الغزال

كان - الى حد ما - مقبولا في قوله، لأن هنالك ارتباطاً على أقل تقدير من ناحية الطبيعة بين الانسان والغزال، فكلاهما تنبض به الحياة. وان يكن ارتباطاً متصيدا نحاوله!

---

(١) تناول الاستاذ العقاد الكلام عن هذا البيت فلا حاجة بي لشرحه.

فلما قال البحتري:

دنوت تواضعاً وعلوت مجداً
فشأناك انخفاض وارتفاع

كذاك الشمس تبعد أن تسامى
ويدنو الضوء منها والشعاع

لم يبق من الارتباط الذي في حديث المتنبي شيء، وكان الموضوع هنا مجرد دليل عقلي منطقي ومسألة شكلية تراها العيون.

ثم نكب الأدب بمن ينحط عن هذا المستوى ويسخف حتى يقول:

فكرت ساعة وصلها في هجرها
فجرت مدامع مقلتي كالعندم

فجعلت أمسح مقلتي بخدها
اذ عادة الكافور امساك الدم

أرأيتم كيف كان دمعه دماً - وهي مبالغة لا نقبلها في هذا العصر ولكنا نميل الى أن نغتفرها لقائلها - فلما رأى هذا الدم يسيل، ورأى خدها كافورا، وعلم من الطب أن الكافور يمسك الدم، مسح بخدها هذا الدم المنبجس، حتى يقف جريانه ويحتبس!! وهكذا يكون التلاعب المزري باسم الشعر المسكين!

أين كل ما مضى من هذه الألاعيب أو السطحيات من تشبيه شاعر ناشىء لمخلوق صغير بائس بدأ ينعشه أمل جديد:

زهرة قد كاد يعروها الذبول
ثم حيتها تباشير الربيع

فهي ترنو بين صحو وذهول
مثلما تحتار في العين الدموع

أو حينما يعرب عن قلبه بعد يأس عقيم:

هذا الفـؤاد الذي خلفـتـه تعـبـا
مـضنى يرجي منك مـقـتـربا

هذا الرجـاء دهاه اليـأس فـانطمـست
آثاره وتوارى ضـوءه وخـبـا

وبات قلبي كـالمحـراب دارسـة
أطلاله يتـراءى مـوحـشـاً خـربا

يجلل الصـمت والذكـرى جـوانبـه
ويطويان به الاجـيـال والحـقـبا

وأين ذلك من قـول الشـاعـر الناشـىء مـحـمـد أفندي الداخلي الهواري، في قلبه المحطم اليائس:

واذا قلبي كـالرمس به رفـقـة دون حـديث من نديم
واذا قلبي سـمـاء أقـفـرت وخـبـا البـدر عليـها والنجـوم

قلب يائس خامد كالمقبرة، فيه ذكريات وخيالات وعواطف ولكنها لا تتحرك ولا تحس، ولا تتناجى بحديث، كالمقبرة فيها أحباب وأعداء، ولكن لا نقاش ولا حديث. ثم الروعة الغاشية على القبر الموحش وعلى قلبه الموحش على السواء. واذا قلبه كذلك سماء مقفرة. خبا البدر بها، وانطمست النجـوم فـلا لمعة ولا ومـضـة، الا الظلام الدامس والأسى الكاسف، والصمت الرهيب.

أو قول هذا الشاب نفسه، ساعة حيرة نفسية تغشيه وتطغى عليه ولا يدري لها سببا ولا يجد فيها مخرجا:

مظلم النفس كـأني ملك غـضب اللّه عليـه في السـمـاء

وأود أن أقف قليلا أمام هذا التشبيه الرائع العميق، فالملك البرىء الذي غضب اللّه عليه، يستحق العطف المضاعف، ويكون في درجة من

البؤس فوق ما يتصور! فهو مطرود من الرحمة دون أن يعرف له موئلا آخر، هو طاهر لا يستطيع الانغماس في الرذيلة، يسري بها عن نفسه. فلو أنه كان شيطانا مغضوباً عليه لكان له في "شيطنته!" عزاء، وفي الرذيلة يلهو بها غناء، عن العالم البريء الذي طرد منه، والرحمة الوادعة التي أقصى عنها. **وهكذا الشاعر الرقيق الحساس، يؤلمه المجتمع فلا هو يستطيع ايلام غيره كما آلمه،** ولا هو يصبر على الايلام، فيبقى هكذا حائرا مضطربا "مظلم النفس كأنه ملك، غضب الله عليه في السماء"!

وكذلك قوله – ولازلت كلما قرأت في شعر هذا الشاب أجد النماذج التي لا تنتهي حتى ينتهي ديوانه غير المطبوع – قوله:

ذهبت في الناس أناتي سدى

كتلاشي العطر في عصف الهواء

وهكذا معظم أنات الشعراء الحقيقيين، تتلاشى في الناس كتلاشي العطر في عصف الهواء، لأنهم لا يعرفون كيف يهرجون ويزيفون، ولا يسيغون أن يتخذوا هذا الشعر وسائل للشهرة وقضاء المصالح الرخيصة، هم يصونونه ولا يزدلفون به ولا يهوشون، ولا يتملقون به الجماهير بأن يخرجوا لها ما تفهم من زخارف خادعة، وبهارج براقة. **ولذلك تتلاشى أناتهم دون أن يشعر بها الا القليلون.**

حقيقة إن هذه المثل السامية التي نتطلبها في الشعر، قد تقصي كثيراً من الشعراء ولا سيما كبراءهم في هذا العهد، أولئك الذين ليس لهم في هذه الناحية الا القليل.

وقد تكون هذه مغالاة فيما نتطلبه، ولكنا لا نريد النزول عن هذه المغالاة، لانها وسيلتنا الى المثل الاعلى. ومادمنا نجد هذا الشعر الذي نريده من بعض الشعراء، ومن شبابنا الناشيء في هذا العهد،

فسبيلنا إذن أن نجعل هذا النوع هو المثل الذي نسعى اليه، فمن ناله فهو الشاعر الحق، ومن قصر عنه فليس ذلك ذنبنا حتى نشفق عليه، وهو لن يعدم من غيرنا القانعين، من يطلق عليه لقب الشاعر. وربما الشاعر الكبير!!

الخيال في الشعر

مهمة الخيال:

وعجيب أمر هذا الشاعر! فبينا جماعة من الناس يرون من المغالاة، أن نشترط فيه ما اشترطنا، ويحسبون أن الشاعر لا يمتاز عن الجماهير بشيء في إحساسه، وإنما يمتاز عنهم فقط، بأنه يستطيع التعبير في اسلوب خلاب. ولذلك يقنعون منه بالتصوير السطحي مادام في أسلوبه بريق، وفي تعابيره زخارف وطلاء.

بينما جماعة يرون ذلك، إذ بآخرين يفهمون في الشعر أنه الخيال المطلق، الذي لابد - في اعتقادهم - أن يناقض الحقيقة. وهو كلما اشتط بعداً عنها، دل على عبقرية الشاعر في نظرهم. ومن هنا نشأت الجملة المحفوظة "أعذب الشعر أكذبه" لان الشاعر في نظرهم غير مسؤول، وذلك أحط ما يمكن أن يصور به الشعراء!

وقبل أن نصحح هذه الفكرة، نود أن نبحث في طبيعة الخيال وصلته بالحقيقة المجردة، أو الحقيقة النسبية، اذا كانت الحقائق المجردة غير موجودة.

نحسب أن الخيال، هو صلة ما بين الانسان القاصر والحقيقة المحجبة، التي تدق على الافهام، فينبعث الخيال ليقرب هذه الحقيقة.

وهو في ناحية أخرى صلة ما بين الانسان وآماله البعيدة، التي لا يحققها له الواقع فيبعث اليها بشباك من خياله، يدنيها منه، ويقربه اليها.

ليست مهمة الخيال اذن أن يشتط ويبعد عن الحقيقة حين يجدها. وهو اذ يصنع ذلك يفقد طبيعته، التي هي ربط

الصلة بين الفكر والحقيقة التي لم يهتد اليها بعد، أو بين الانسان وآماله المترامية. حيث تنتهي مهمة الخيال ويكون قد ادى واجبه المطلوب منه.

اما الذي يجد الحقيقة أمامه، ثم يتجاهلها، ويجنح للخيال يشتط به عنها، فهو الزائف الاحساس، المموه الطبيعة. ولن يكون هذا هو الشاعر.

الشاعر الذي كل ميزته أنه يحس بالحياة احساساً صادقاً، ويعبر عما يحسه باخلاص.

الشعر والحقيقة:

ويقال هنا: ان الشعر الذي يعبر عن الحقيقة، قد يفقد شاعريته وموسيقاه، ويصبح فلسفة مجردة جافة، لا دخل فيها للشعور الا بمقدار. ونقول "بمقدار" لان الفلسفة نفسها ليست بمعزل عن الشعور. والشعور ليس بمعزل عن الفلسفة. وإنما هما يتداخلان ويتفاعلان بمقادير وكيفيات غير مضبوطة ولا دقيقة، ككل ما يتصل بالنفس الانسانية.

وجوابنا أن الشعر في الواقع يعبر عن الحقيقة، كما أشرنا أول الحديث ولكن الحقائق التي يعبر عنها الشعر، من نوع آخر غير الحقائق التي تعني بها الفلسفة، هي حقائق الاحساس الخفي، التي قد يختلف في تقديرها كل فرد عن الآخر.

واذا قلنا يختلف في تقديرها كل فرد عن الآخر، فانما نعني ذلك الى حد محدود، لأن هناك مقداراً أوليا من الاحساس مشتركا في النفس الانسانية عامة، ما لم تفسد فطرتها، هذا القدر الأولي تشترك فيه النفوس المختلفة، ثم تأخذ بعده في الافتراق، حسب الامزجة أولا، ثم حسب الافراد، فيمتاز احساس بالدقة، ويمتاز آخر بالعمق، وثالث

سرعة الانتقال وبارع بادراك الأوجه المتعددة للمسألة الواحدة وهكذا...

والشاعر أصدق احساساً من ذلك كله، لأنه أكثر ادراكا أو أكثر شعوراً، بالحقيقة الطبيعية "الخام".

الحقيقة التي تنبض بها الحياة نفسها، بل الحقيقة التي تكون الحياة ذاتها احدى أفرادها! وابن الرومي مثلا حينما يقول عن الأرض في الربيع:

تبــــرجت بعـــد حـــيــــاء وخــــفـــــر

تبــــرج الأنثى تصــــــدت للذكـــــر

إنما يدرك عمق طبيعة الحياة، حينما يدرك أن الأرض تتبرج للربيع تبرج الانثى تصدت للذكر. فليست الحياة في صميمها إلا تزاوجا بين الجنسين، وإلا إغراء من كل منهما للآخر بكل الوسائل، حتى يكون هذا التزاوج. وفي هذا القدر تشترك الأرض الصامتة، والنبات الساكن، والحيوان الأعجم، والانسان المتوحش، والانسان الراقي على السواء. ولا سيما في فصل الربيع.

وكذلك حين يقول شاعر ناشيء في قصيدة بعنوان:

الصبح يتنفس

نســمــــات زفــــهــــا الفــــجــــر الوليــــد

بعــد مــا جــاش بهـــا صــــدر الحـــيــــاة

ناعـــــمــــــات مــــثل أنفــــاس الورود

بـلـل الـطـل شــــــــــــذاها بــنــداه

* * *

كــانت الدنيــا يغــشــيــهــا السكون

وظلام الليل والنوم العـــــمـــــيق

طفلة قد ضمها الليل الحنون
ضمة الرحمة كالأم الشفوق

* * *

وتراءى الصبح في سمت بديع
فاذا الطفلة تصحو من سبات
ترسل الانفاس في رفق وديع
وإذا الأنفاس تلك النسمات

* * *

وإذا الزهر يحيى في ابتسام
ذلك الصبح ويرنو في هدوء
كابتسام الطفل في عهد العظام
حينما يحلم بالثدي المليء!

* * *

وإذا الطير وقد ران النعاس
فوق عينيه تنزى فصحا
يرمق النور بهمس واختلاس
ويحييه طروباً مرحا

* * *

وانبثاق الفجر من سدف الظلام
مثلما يبسم للعاني الامل
يلثم الكون ببشر وابتسام
ويحييه برفق في القبل

* * *

وإذا الأنــفــس فــي هــذا الحــنــان

وادعــات بين أحــضــان الطبــيــعــة

ســاهيــات راضــيــات في أمــان

تــرسل الـطرف بـرنـوات وديـعــة

* * *

حــالمات في كــراهـا يـقظات

ســابحــات في التــعــلات الوضــاء

تنشــد الآمــال عــذب الأغنيــات

بين ســمــعــيــهــا ويحــدوها الرجــاء

* * *

فــتــرة في مطلـع الفــجــر تمر

هـي حلـم مــثـل أيام الـطفــولـة

فــاذا مــرت فــجــوٌ مكفــهــر

هو في الطفل شــبــاب وكــهــولة

* * *

ليـتني عــشت بأحــضــان الصــبــاح

أو قــضــيت العــمــر استــمــتع طفــلا

لا. ولا هــذا مــن الـدهــر يتــاح

لا. ولا قــد عــدت أســتــمــتع. كــلا!

حينما يقول: إن الحياة طفلة، كان يضمها الليل في كنفه، ثم لما أبصرت الصباح استيقظت وتنفست، فكانت أنفاسها هي نسمات الفجر الرقيقة... هو في الحقيقة لا يتخيل، ولكنه يتعمق في طبيعة الحياة أكثر من الفرد العادي الذي لا يرى إلا ظواهرها، فاذا الحياة

طفلة لأنها لا تزال غريرة صغيرة، وإذا الليل يضم هذه الطفلة التي تأخذها المظاهر، وتجتذبها الأضواء. ونظرة الى الدنيا في الصبح الباكر لا بد أن تصورها طفلة وديعة؟

وكذلك حين يشبه الزهر في تفتحه لنسمات الفجر، بالطفل المبتسم لحلمة الثدي، بعد فطامه... لم يهده الخيال الى ذلك، ولكن هداه احساسه الدقيق الذي يلمح العلاقة بين الزهر والطفولة، وبين ابتهاج الزهرة بنسمات تحييها وتغذيها، وابتهاج الطفل بحلمه البريء، بثديه الذي يحييه ويغذيه!

وكذلك تشبيه انبثاق الفجر من أسداف الظلام، بانبثاق الأمل للعاني المكدود... فاسترواح النفس للفجر كاسترواحها للأمل وأدق من ذلك أن الفجر هو أمل الحياة، الذي يقشع عنها ظلمة الليل البهيم.

فاذا رأى الناس بعد ذلك خيالا في الشعر الحقيق بهذا الاسم، ورأوه بعيداً عن الحقيقة التي يدركونها هم، فذلك لأن الشاعر أدرك من الاعماق ما لم تدركه الجماهير، ودق في احساسه حتى تراءى ذلك خيالا، لمن لا يحس بقرارات الطبيعة، والصلات الخفية بين أبنائها جميعاً.

احساس الشاعر بالكون

ولقد تكون نظرية وحدة الكون جديدة في عالم النظريات العلمية، وبعض المذاهب الصوفية. ولكنها كانت منذ عهد بعيد ثابتة في طبائع الانسان العميقة، وهي أثبت من ذلك في طبيعة الشاعر وفي نظرته للحياة، وهي كذلك في نظر الفنانين جميعاً. لأنهم إذ يقربون بيننا وبين المثل الأعلى، يجب أن يحسوا قبل ذلك بالعلاقة التي تربطنا بهذا المثل، والطريق التي توصلنا اليه، ومقدار الخطوات التي قطعها الكون كله في هذه الطريق. وهم في أثناء ذلك سيحسون بتساند الاحياء

جميعا، وتكاتف المخلوقات كلها. وهي تسير ميممة للامام.

لا بل انهم لم يكتفوا بالاحياء. فراحوا يشركون الكائنات جميعا - حية وميتة - في هذا التساند والتكاتف. ومنشأ ذلك كله إحساسهم بوحدة الكون في جهاده. فنظروا اليه نظرة المحيط بالاطراف، المتعمق في القرارات.

ومثل هذا الاحساس يبدو فيما تقدم من حديث ابن الرومي عن الارض والربيع. وفي قصيدة الشاعر الناشىء "تنفس الصبح" كما يتجلى في فلسفة المعري جميعها، وان اتجه الى طريق التشاؤم. فهو متشائم من الحياة جميعها، وكل شيء فيها متصل بكل شيء في نظره فهي جميعها حساسة متصلة.

ومن ذلك قوله:

تسريح كف برغوثا ظفرت به
أبر من درهم تعطيه محتاجا

كلاهما يتوقى والحياة له
حبيبة ويروم العيش مهتاجا

ويتضح أكثر في قوله:

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض
إلا من هذه الاجساد

وفي قول جبران خليل جبران موازنا بين عالم الطبيعة وعالم الانسان:

واذا ما اللوز ألقى زهره فوق الهشيم
لم يقل هذا حقير وأنا المولى العظيم

وفي شعر الشباب الحاضر ما قد تغلغل في الاحساس بالصلة بين الانسان والطبيعة الى حد كبير. **واني لميال لان أستشهد**

بالشباب الصغير، الشباب الناشيء المغمور. وفيما مضى ذكرت شيئاً من ذلك لعلي أفندي عبد العظيم في قصيدة "الليل". وها أنا أذكر مثالا للاستاذ "محمود عبد الرحمن قراعة" في قصيدة متعمقة في الحيرة والجولان في هذا العالم:

اســـــرحي أيتـــــهـــا البـــهم على

بسط منســـــــوجــــــة من سندس

اســـــرحي من مطلع الشـــمس الى

أن يبـــيـــد الضـــوء جـــيش الغلس

* * *

لا عـلـى قـلـبك من ذل الاســـــــــار

طائف يمنعـــــه أن يســـــتـــــقـــــرا

لو تجلى لك مـــــا خلف الســـتـــار

لذت بالبـــيـــد من الانســـــان ذعـــرا

هو ذا القـــصـــاب يخـــتـــار الشـــفـــار

ثم لا يلبث أن يهـــديك شـــــفـــــرا!

يبلغ الاوداج يفـــري المفـــصـــلا

فـــاذا الـعـــمـــر كـــرجع النفس

واذا مـــــا حـــشـــرج الروح فـــلا

من فـــــداء بالعـــــزيز الأنفس

* * *

اقـــبلي دنيـــاك مـــا طابت مـــراحـــا

ودعي المخـــــفي للعـــالم وحـــده

ليس أمـــر الغـــيب للناس مـــبـــاحـــا

لا. ولن يســـتطيع عـــقل أن يحـــده

اننـا لا ندرك الحـق الـصــــراحــــا

أو أعـــــددنـا لـدفـع المـوت عـــــده؟

أم طبــــيب قــــد يرد الأجـــــلا؟

لـيــــتــــه يســــتطيـع بـرء الأنـفس!

كـل مــــا جـــــاد بـه أن عـلـلا

مـظلـم الـنـفس بـنـور الـقــــــبس!

* * *

من لقلـب فــــرغت حــــاجــــاتـه

فــهــو خلو من أمـــاني الشـــبـــاب!

حطمـــــتـــــه فـــعــــفت أياتـه

صــدمــة الصـد واســدال الـحـجـاب

مـــــا تـبــــــدي أبـداً أهـاتـه

أفــتــحــيــيــه سطور من كــتــاب؟

لا أبـالـي إن فـــــقــــدت الأمـــــلا

أي رمـــس خـــط لــــي فــــي الأرمـــس

أوحـــيــدا ضــعت في قــفــر الفــلا

أو عــــــــزيـزاً مـت بـين الـنـرجـس؟

* * *

لـيس يـخــــتــــار أكـــيـل أكـلـه

وأرى الســـاعـــات تمضي لا تـعـــود

أنـرى هـذي الـحــــيــــاة الزائـلـة

أطول الآجـــال فـــيـــهـــا ظل عــود؟

كل مـــا فـــيـــهـــا أمـــان باطلة

يســتـوي الســيـد فـيـهـا والمســود

كل مـا شـيـد بهـا مـهـمـا عـلا

لا يســـاوي حـــيـــرة في حندس!

هل تراه حل أمـــراً مـــعـــضـــلا؟

لا. ولا رد عـــنـــاد الـــشـــكـــس

* * *

لم كـــان الكون مـــا بين ســـمـــاء

فـــجـــبـــال فنجـــاد فـــبـــحـــار!

لم حل الذر أطبـــاق الفـــضـــاء

لم كـــان القطر من بين البـــخـــار

لك ربي دنت فـــاحكم مـــا تشـــاء

غـــيـــر أن العـــقل في الحكم يحـــار

يرد الشك ومـــهـــمـــا نـهـــلا

مـــا روى مظمـــأه مـــا يحـــتـــسي

يهـــبط القـــاع ويعلو الجـــبـــلا

هـائمـــا من عـــريه لم يكتس

في وسط هذه الحيرة الجارفة، من هذا الكون وما فيه من طلاسم ومعميات، يلمس الانسان إحساسا بوحدة هذا الكون وتفاعل جزئياته. وإن كان الشاعر يريد أن يعلم سر اجتماع هذه الاجزاء وسر تفاعلها، ومن أين جاءت؟ وأين ستنتهي؟ وهو حائر.

يهـــبط القـــاع ويعلو الجـــبـــلا

هـائمـــا من عـــريه لم يكتس

وهو يغبط البهم، لانها لا تحار هذه الحيرة، ولا تفكر في صلاتها بالآخرين!

اقـــبلي دنيـــاك مـــا طابت مـــراحـــا

ودعي المخـــــفي للعــــالم وحـــــده

وهي نظرة شاعر شديد الحساسية، يجنح للفلسفة، ولكنها فلسفة الحياة النابضة. فلسفة الشعور المتحفز المتعمق، وذلك أدخل في لب الشعر الصحيح.

الخيال الشعري والمبالغة:

ويحسب البعض أن الشاعر حينما يعبر عن إحساسه، وحينما يصف عواطفه وأشجانه، في صورة رائعة. يحسبون أنه يدرك الحقائق كما تدركها الجماهير، ويحس كما تحس الجماهير، ولكنه يزيف فقط في التعبير، فيفخم ويعظم.

ولكن الواقع أنه لا يفعل ذلك الا الشاعر الزائف الاحساس. السطحي الشعور، أما الشاعر الحق، **فهو يدرك الأشياء على هذا النحو من الدقة والعمق والفخامة، فيعبر عنها كما يراها.** وهذا ما قصدنا اليه من أن الشاعر يعبر عن الحقيقة. لأنه يتحدث كما يرى ويعبر عما يحس بلا تزييف، اذا كان شاعراً جديراً بهذا اللقب النبيل.

ان الشاعر يدرك من العلاقات بين التصورات والأحاسيس ما لا يدركه الآخرون، فتراه ينتقل من هذه الخاطرة الى تلك، لأنه يلمح العلاقة بينهما في أعمق من الطبقة الظاهرية. بينما الآخرون لا يلمحون هذه العلاقة، فيحسبون أن في تعبيره مفارقة، أو كذبا وما هو بمفارق ولا كاذب، ولكنه إدراك أعمق وأدق وأسرع مما يدركون.

على أن الخيال كما قلنا له وجهة أخرى، هي التقريب بين الانسان وآماله تارة، وبينه وبين المثل الأعلى - إن كان من طلاب هذا المثل - تارة، فالخيال بهذا الاعتبار متسع المجال للشاعر، الذي لا تفتأ آماله في إتقاد، ولا تفتأ آلامه أيضاً في اشتداد، وهو دائب على طلب المثل العليا، سواء أحس بذلك أم لم يحس، فهو يؤدي مهمته بلا تفكير.

الناس تقنع بالحـــيـــاة وترتضى
منها محـــاسن شـــوهت بمثـــالب
والشـــاعـــرون تـؤزهـم أدرانـهـــا
يبـــغـــونهـــا لم تمتـــزج بشـــوائب!
حس أرق من الاثيـــر، يهـــيـــجـــه
مـــا قـــد تمر عليـــه مـــر اللاعب!
وهي الحـــيـــاة: لم يرق شـــعـــوره
ألـــم. وان يـــكـــشـــف فـــلـــذة راغـــب

وليس معنى الخيال هنا، أن يبالغ الشاعر وهو مدرك لمبالغته فان ذلك شأن المهرجين. ولكنه يبالغ بطبيعته، ودون شعور منه بمبالغته، **لأنه أشد حساسية وأدق شعوراً، فهو يتلهف لما يريد، وهو يألم للاصطدام - وما أكثر الآلام، اذا كثرت الآمال - وانه لصادق في تلهفه، كما هو صادق في تألمه على السواء.**

تناسق الخيال:

وثمة ناحية أخرى خاطئة في فهم طبيعة الخيال، ومهمته في الشعر نشأ الخطأ فيها عن الخطأ الأول ذلك أن الذين يفهمون أن الخيال الطبيعي كل ما بعد عن الحقيقة - ولو طوعاً واختياراً - لا يشترطون بطبيعة الحال أن يكون في هذا الخيال حياة نابضة، متناسقة الأجزاء.

وبعبارة أخرى لا يشترطون التلاءم والتوازن في هذا الخيال. ولا يعتبرون نقصاً فيه أن يبدو أحد الأخيلة في القصيدة مناقضاً للآخر لأن الاثنين يتفقان في أنهما غير حقيقة، وهذا هو كل شرط الخيال في نظرهم!

أما نحن فلا نرى في الخيال سمواً، إلا إذا كان كل جزء منه مكملاً للآخر، **بحيث تكون أخيلة القصيدة جميعها متناسقة،** والظل الذي تطبعه الصورة المتخيلة ظلاً كاملاً، متلائم الأجزاء، لا نتوء فيه ولا تعارض. **وبعبارة أخرى أن تكون وحدة الشعر هي القصيدة لا البيت - أو الشطرة** - كما غالى بعض المتقدمين، ومن لا يزالون يعيشون بعقول المتقدمين.

والذي نتطلبه هو الذي يتفق وطبيعة الجمال. الجمال لا يعترف بالأجزاء، بل ولا أتصور وجوده في الأجزاء كل على حدة، **فالجمال تناسق الأعضاء، أو هو قوة تنتج عن هذا التناسق.** ولن يكون تناسق بين العضو ونفسه. ولهذا كانت التشبيهات التي تقتصر على العين وحدها ثم الخدود والخصور والارداف... الخ. تشبيهات سقيمة تجزيء هذه المجموعة الحية، وتدعها أشلاء ممزقة كما ذكرنا فيما مضى، فضلاً على ما قد يكون هناك من تعارض بعض الأجزاء مع البعض الآخر.

وأمثال التجزئة في الوصف، ولا سيما وصف الخدود والعيون والنحور، كثيرة مشهورة تملأ الشعر العربي، وتطغى على شعر العصر الحاضر إلا القليل.

وأما تعارض الأخيلة في القصيدة الواحدة فمثاله قول شوقي الشاعر عن أبي الهول:

تهزأت دهراً بديك الصبا ح فنقر عينيك فيما نقر

ودعنا من الصباح وديكه! وكون هذا الديك لابد أن ينقر كما تفعل

الديكة! وكون الصباح وحده أثر في أبي الهول دون الليل مثلا!

دعنا من هذا وما فيه من تكلف وقصر نظر، إلى أن شوقي يقول لأبي الهول نفسه هذا الأعمى الذي نقر ديك الصباح عينيه:

تطل على عالم يستهل وتوفي على عالم يحتضر

فعين الى من بدا للوجود وأخرى مشيعة من غبر

فهنا عاد أبو الهول مبصراً، يطل على عالمين، وعادت عيناه سليمتين حادتي النظر.

وقد يكون كل تشبيه بمفرده حسناً في ذاته. ولكن باجتماعهما يتعارضان، ويدلان على أن الشاعر لم يكن صادقاً فيما يحس، لأن الصادق لا يتناقض أول كلامه بآخره!

سيقولون شاعر شبه أبا الهول تشبيها، ثم شبهه تشبيها آخر مستقلا. ولكنا نحن لا نقبل منه هذا التعارض في الأخيلة، بين تشبيه وتشبيه، في قصيدة واحدة على الأقل. والشعر لا يعرف هذا الاستقلال بين التشبيهات ولا يريد ضرائر المعاني، تتخاصم وتتشاحن. بل كل المعاني لديه أخوات مؤتلفات. لا بل أدق من ذلك: كل المعاني في القصيدة الواحدة أجزاء يكمل بعضها بعضا. ويتصل به اتصال العضو باخيه، لا غنى عنه. ولا فكاك منه!

ومثال من التعارض نأخذه من قول "عبد العزيز عتيق" الذي أعجبنا بقصيدته "الطلل البالي" منذ لحظات. إذ يقول في قصيدة "أنا والحياة" في ديوانه المطبوع:

تخاف على الدنيا تمرد شاعر!

وهل ظالم الايام من عاش زاويا؟

ويقول:

بعيداً وحيداً غير نفسي وخاطري

سعيداً بأن أحيا مدى العمر خافيا

فيمثل بذلك الانزواء والبعد عن الحياة وأهلها بحيث لا يراه أو يشعر به كائن من كان. ولكنه لا يلبث أن يقول بعد ذلك:

سأبقى على الدنيا خيالاً مشاكسا

أبدد أحلاما وأقصي أمانيا

فيشعرنا أنه سيشاكس هذه الحياة، ويبدد أحلامها، ويقصي أمانيها. فتتجلى أمامنا صورتان متعارضتان: صورة "الوادع" وصورة "المشاكس". صورة "المنزوي" وصورة "المناضل". والذي يعيش زاويا خافيا، لا يحس به أحد، لا يمكن أن يكون مشاكسا يبدد الاحلام ويقصي الأماني. وأن لفظة "المشاكس" في ذاتها لتحدث ضجة وقسوة لا تتفق وهذا الانزواء.

نعم قد يكون عذره في ذلك أن القصيدة اضطراب نفسي حانق، وهذا الاضطراب يوحي مرة بالقوة، وأخرى بالضعف، مرة بالمسالمة وأخرى بالمشاكسة. وهو عذر طبيعي يحسه الشعراء وغير الشعراء ولكنا مع هذا لا نميل الى التسامح معه في هذا التضارب.

وأقل من هذا تعارضا. قوله في قصيدة لم تنشر بعد! بعنوان "مدينة الأموات":

خيم الصمت فوقها والظلام

وغزا النوم ساكنيها فناموا

فقد أحسست عندما أسمعني هذا المطلع أن كلمة "غزا" تحدث ضجة وجلبة، لا تليق بهذا الصمت المخيم، وذلك النوم الذي لا حراك فيه، وهي تحد من جوانب هذا الجلال النائم، وتوقظه من سباته الرهيب. حينما تلقي في الذهن صورة للغزو، مصحوبة بالصخب والضجيج!

وهو يصر على الاعجاب بـ"غزا" هذه. كما أعجب بـ"مشاكس"

وأكبر الظن أن الشباب المتحفز، يدفعه للاعجاب بهما. الشباب المغرم بالضجة والقعقعة. والا فأنا لا أفهم كيف يصر على ذلك من يقول مثل قصيدة "الطلل البالي" أو "حلم الورد" وأمثالهما في ديوانه.

ومثال هذا أيضاً. قول "علي عبد العظيم" الذي أعجبنا بقصيدته عن الليل قبل ذلك. فهو يقول عن السماء في نفس هذه القصيدة:

كــأنـهـــا فـــوق هذا الكون مـــقـــبـــرة

أرخت عليـــه ظلام الليل أكـــفـــانا

كـــأنـهـــا رأس فنان وانجـــمـــهـــا

بنات أفكاره تبـــــدي لـه شـــــانا

فان تشبيه السماء بالمقبرة. والظلام بالاكفان المسدلة على الكون. يلقي في ذهن السامع صورة للفناء الشامل والموت المحيط. فلا يليق بجانبها أن تكون السماء رأس فنان ونجومها بنات أفكاره. لأن رأس الفنان، أول مظهر على الحياة النابضة الحساسة. فهنا خيالان متعارضان لا نغتفرهما لشاعر ملهم كعلي عبد العظيم.

وقد جاء هذا المعنى للاستاذ العقاد في وصف السماء!

كأنها الهاوية المقلوبة   كأنها الجمجمة المنخوبة

فسلم من تعارض الخيال. لأن الجمجمة المنخوبة لا تتعارض مع الهاوية المقلوبة. تعارض رأس الفنان الحي النابض!

وقد أعجبنا من قبل بقول الداخلي أن قلبه كالمقبرة، وفي الوقت نفسه كالسماء المقفرة: لان القلب اليائس المظلم الجوانب يشبه المقبرة، كما يشبه السماء المقفرة، ولا تعارض في التشبيه.

وقد يقال: اننا نحرم تشبيه شيء بأشياء من نواح مختلفة. ونحن لم نرد ذلك، ولم نحرم الشيء بكثير من التشبيهات. ولكنا فقط نشترط تلائمها وتعارفها.

وها هو ذا شاعر ناشيء، يحدث عن نغمات "العود" فيقول:

كـــــأن ألحـــــــانك اللائي ترددها
أطيــــاف ذكـــرى توارت ترجع الآنا

كـــأنهـــا خطرات في مـــخـــيلة
تحـسـهـا ثم لا تسـتطع تبـيـانا

كـــأنهـــا همس جن أو مـــلائكة
أسـر، عن عـالم الانسـان كـتـمـانا

فهنا تشبيهات ثلاثة، ولكنها متآخية، لا يزحم واحد منها الآخر ولا يتنافر معه... فالأطياف. والخطرات. والهمس. تشترك جميعها في الرقة والخفوت والحنان.

الى هذا الحد نحن نذهب الى وجوب التناسق والائتلاف ولا نتسامح فيه، ولا يمنعنا الإعجاب بشعرائنا الناشئين، أن نحاسبهم على هذه السقطات البسيطة مهما كان لهم عذر فيها، لاننا نريد نوعا جديدا من الشعر والشعراء، يمثلون فطرة الشاعر الصحيحة، فطرة التناسق والجمال. ونريد أن يكون هؤلاء الناشؤون هم نماذج الكمال.

ذوق الشاعر

ومسألة تناسق الخيال، وتلائم أجزائه. مسألة ترجع الى الذوق كما يرجع معنى التناسق في كل شيء الى هذا الذوق الحاكم، الذي لا تعلل أحكامه تعليلاً منطقيا، لانه غير محدود، ولا يقبل بطبيعته التحديد.

والشاعر الحقيقي - وهو الدقيق الاحساس، الملهم الفطرة - لا بد له من ذوق أرق من الأذواق، ذوق يستطيع الملاءمة في الاحساس والتناسق في التعبير. لا بل ان الاحساس السامي الدقيق لمبعث هذا الذوق. أو هما على الأقل أمران متلازمان، ومظهر من مظاهر الالهام الصادق والوحي العميق.

أثر البيئة في الذوق العميق والشعور والخيال:

على أن تنافر الاخيلة والصور، قد يكون راجعاً الى البيئة الطبيعية، والى درجة الثقافة التي تهذب الأذهان والاحساسات، **وتجمع بين الفكر الشاردة برباط من المعرفة الجامعة**. والى الحالة الاجتماعية، وما فيها من ارتباط بين الافراد، أو تنافر وشرود.

كل هذه عوامل تؤثر في نفس الشاعر وذوقه، وبالأخص في ناحية **ائتلاف المعاني، وتناسق الأخيلة، وهذه نظرية أكثر ما تكون وضوحا في الشعر الجاهلي**. وهي في البوادي أظهر منها في الحواضر، وقد كانت عوامل التنافر على أشدها، وكانت كلها جميعاً.

كانت بيئة طبيعية مجدبة، متنافرة المقاطع، لا تحوي من ألوان الحياة الا قليلا، ولا يكاد يربط بين افرادها رابط... هنا تل وهناك جبل. هنا غور وهناك رابية. وهي جميعها أو معظمها جرداء لا تصل

بينها صلة من الحياة... مناظر تشتت الذهن، وتوزع الخيال.

وكانت الثقافة العامة، التي تصقل الأذهان، وترتب الخواطر تكاد تكون مفقودة فقدانا تاماً، فالمعلومات في هذه الأذهان - ان تكون ثمة معلومات - لا تلتقي واحدة منها بالاخرى، ولا رابطة بينها جميعاً، وانما هي شوارد نافرة.. ولهذا أيضاً أثره في تنظيم أفكار الشاعر، وفي نظرته للحياة واحساسه بها.

وكانت القبائل، بل الأفراد، في خصام دائم، يشعر بالتفكك والانحلال، ولا يوحي الى الذهن، الا بأن العالم أشلاء ممزقة، كل واحد منها لا يتعاون مع الآخر، ولا يمت اليه بسبب.

وفوق هذا جميعه، فقد كانت المناظر الخاصة التي يقع عليها نظر الشاعر في كل مكان: في فسطاطه وفي ملبسه. وفي طريقه. كلها توحي اليه بخيال متنافر لا ارتباط بين اجزائه.

بعد هذا كله لا نرى عجبا أن يكون الشعر في هذه الفترة، مشرد الخواطر، مشتت الأخيلة تكاد كل شطرة - لا كل بيت - تكون وحدة قائمة بذاتها. وهي أشبه شيء بخواطر الاطفال، يسترعي انتباهم كل حادث، فيعبرون عنه للحظته، تعبيراً متعجلاً سريعاً، لا يكاد يتم حتى تنتقل خواطرهم الى جديد. قد يكون أبعد ما يكون عن الخاطر الأول.

والباحث في الشعر الجاهلي... أو "شعر الصحراء"! عامة جاهلياً وغير جاهلي، لا يكاد يعثر على صورة كاملة لخاطرة من الخواطر. الا أن يكون ذلك عرضاً واتفاقاً قليل الوقوع وفي حالة نفسية عارمة، لا تدع للخاطر أن يذهب الى سواها. كذلك الشيخ الجاهلي من بني ضبة، اذ كان له سبعة أولاد كما يقول الأمالي - فخرجوا يصطادون فأووا الى غار فهوت عليهم صخرة فأتت عليهم جميعاً فقال:

أسبعة أطواد أسبعة أبحر
أسبعة أساد أسبعة أنجم
رزنهمو في ساعة جرعتهمو
كؤوس المنايا تحت صخر مرضم
فمن تلك أيام الزمان حميدة
لديه. فاني قد تعرقن أعظمي!
بلغن نسيسي وارتشفن بلالتي
وصلينني جمر الاسى المتضرم
أحين رماني بالثمانين منكب
من الدهر منح في فؤادي بأسهم؟
رزئت بأعضائي الذين بأيدهم
أنوء وأحمي حوزتي وأحتمي؟
فان لم تذب عليهم صبابة
فسوف أشوب دمعها بعد بالدم

وهذه القطعة مع روعة ظرفها ورهبته، حتى خرجت كاملة دامية الجوانب، مع ذلك تسلم من التنافر: سبعة أطواد، وسبعة أبحر. وسبعة أساد. وسبعة أنجم. لا جامع بين هذه التشبيهات الا مايريد الوالد المفجوع من مدح بنيه، وليس بينها جامع نفسي مشترك سوى هذا.

جمال السذاجة والصدق:

وليس لنا أن نتهم إحساس الشعراء في هذه الفترة، فقد كان احساسا سادجا وخالصاً. ولكن هي الظروف جميعا، تكاتفت على الشاعر، فتركت أثرها ظاهرا. وهذه الظروف هي التي تزيد اعجابنا

بالشاعر "الصحراوي" - لا الشعر الصحراوي (١)- لأنه استطاع رغم تلك الظروف السيئة التي أحاطت به، أن يخرج في بعض الاحيان صوراً حية كاملة الاجزاء، متناسقة الاعضاء بقدر الامكان.

ولئن فات الشعر في هذا الوقت جمال التناسق والعمق والالتئام، فقد كان له جمال آخر هو جمال السذاجة البريئة النقية:

حللنا آمنين بخير عيش
ولم يشعر بنا واش يكيد

ولم نشعر بجد البين حتى
أجد البين سيار عنود

وحتى قيل: قوض آل بشر
وجاءهم ببينهمو البريد

فلما ودعونا واستقلت
بهم قلص هواديهن قود

كتمت عواذلي ما في فؤادي
وقلت لهن: ليتهمو بعيد!

فجالت عبرة أشفقت منها
تسيل كأن وابلها فريد

فقالوا: قد جزعت! فقلت: كلا
وهل يبكي من الطرب الجليد؟!

ولكني أصاب سواد عيني
عويد قذى له طرف حديد!

---

(١) نقصد بالشعر الصحراوي ما قيل في البادية ولو لم يكن جاهليا.

فقالوا ما لدمعهم سواء

أكلتا مقلتيك أصاب عود؟

لقبل دموع عينك خبرتنا

بما جمجمت زفرتك الصعود!

فقم وانظر يزدك مطال شوق

هنالك منظر لهمو بعيد!

ألا انه يستحق العطف -واللّه - على هذه السذاجة الصادقة أيها الأخوان!

وكذلك الرجل الاعرابي الذي ابتاع خمرا بصوف جزة، فغضبت امرأته لذلك الاسراف فقال:

غضبت علي لأن شربت بصوف

ولئن غضبت لاشربن بخروف!

ولئن غضبت لأشربن بنعجة

دهساء مالئة الاناء سحوف!

ولئن غضبت لأشربن بناقة

كوماء ناوية العظام صفوف!

ولئن غضبت لأشربن بسابح

نهد أشم المنكبين منيف!

ولئن غضبت لأشربن بواحدي

ولاجعلن الصبر منه حليفي

تلك سذاجة واضحة، في عناد كعناد الاطفال. وانني لمعجب بهذه الصورة على بساطتها المتناهية!!

ولكن اذا كان اعجابنا بالاطفال واحساسنا بجمال تعبيرهم،

لايجعلنا نحاول ان نكون أطفالا! ولا أن نعبر عن خواطرنا كما يعبرون. كذلك فليكن نظرنا الى الشعر "الصحراوي"، فليس هو المثل الأعلى الذي نقتدي به وإن يكن هو في ذاته مثلاً أعلى للعصر الذي وجد فيه.

بلاد العرب والشعر:

وبمناسبة الحديث عن الشعر "الصحراوي" نريد أن نعرض لفكرة رأيناها كثيراً في كتب الأدب المدرسية، وهي تريد أن تفهمنا أن البيئة العربية أصلح البيئات للشعر، فالجبال، والصحراء، والسماء الصافية كلها من المهيئات المساعدة.

هذه الفكرة تأخذ بجانب واحد من جوانب البحث، وتدع بقية الجوانب، والواقع أن البيئة العربية هذه توحي بالشعر. ولكنه الشعر الذي يضم الى تنافر الأخيلة - كما قدمنا - كثيراً من السطحية التي لا تمتد الى ما وراء الظواهر.

فهناك طبيعة طفلة، لا تركيب فيها ولا تنوع. وهي لا تحتوي إلا لوناً واحداً من ألوان الحياة. فهي إذن ستخلق إحساساً ذا لون واحد. لا يحيط إلا بجانب من جوانب الشعور.

ثم ان السماء الصافية هذه، لا تدع للخيال أن يتعمق. فكل شيء واضح لا يدعو الى التعمق والأناة. وليس هناك خفي يجد وراءه الخيال وإن دعا هذا الوضوح الى إلهاب الاحساس وتهيجه، وسرعة تنقله. ولكن فرق بين العمق والالتهاب. وأين هي البروق والرعود وغضبات الطبيعة التي تفتح جوانب الاحساس، وتحيط الشاعر بجو من الغموض الرهيب، يسبح فيه خياله، ويتعمق إحساسه، ويشعر بالكون من حوله شعور التفاعل والتجاذب، ويحس كم هو فيه الحياة وكم تتمثل فيه الحياة؟!

ومهما يكن للبيئة العربية من فضل، فهي لا يمكن أن توازن بالبيئات المزدوجة المركبة، التي تجمع كثيراً من ألوان الحياة المختلفة المتشابكة.

ولا نريد أن نضرب الأمثال بالشعر الأوربي، أو الشعر المصري الناشيء. ولكن نريد أن نستدل بالشعر العربي نفسه، أيام الدولة العباسية، حينما تفتحت جوانب الاحساس، بتنوع المناظر، وتركب الطبيعة، وارتقاء ألوانها.

على أن أموراً جديدة في الدولة العباسية - غير البيئة الطبيعية - قد ساعدت على هذا التفتح. تلك هي ارتقاء الملكات الفكرية بما ذاع من علوم الثقافة المعربة والمؤلفة، والاختلاط بالأمم المجاورة وترابط الشعب العربي، ونوع الحكومة، وعلاقات الأفراد وتشابك المصالح وبالجملة كل شؤون الحياة التي انقلبت في هذا العهد وارتقت. فكان لها أثرها في رقة الشعور وتهذيب الذوق، وتناسق الخيال، والتعمق في الاحساس، وإخراج الصور النفسية المركبة المتشابكة، بقدر ما كانت تهيء النفسية العامة إذ ذاك.

والباحث في تدرج الشعر من الجاهلية الى العصر العباسي يلمح فيه هذا التدرج المحسوس، من البساطة إلى التركيب، ومن السطحية إلى التعمق، ومن التنافر الى التآلف. وقبل عمر بن أبي ربيعة مثلاً، لم يكن ينتظر من شاعر عربي أن يقول عن امرأة:

دمـــيـــة عند راهب ذي اجـــتـــهـــاد

صـــوروها في جـــانب المحـــراب

دمية. وهذه الدمية عند راهب، وهذا الراهب مجتهد في رهبنته وصوروها في جانب المحراب، ليخلعوا عليها ظلا من الرهبة أقوى.

هذا خيال مركب، وإحساس عميق، لم يكن ليكون إلا في العصر العباسي، وإلا من شاعر منتظم الفكر والتصور، مهذب الخيال كعمر

ابن أبي ربيعة.

وكذلك تلاحظ ظاهرة أخرى في أوائل الدولة العباسية، قد تكون لها بمبحثنا علاقة: هذه الظاهرة هي التعبير عن الأشياء الجديدة التي وقع نظرهم عليها من المناظر والمآكل والملابس؛ التعبير عن هذه الأشياء الجديدة، تعابير حسية، تشعرك بالدهشة التي خالجت صاحبها. شأن الطفل يرى التفاحة لأول مرة، فاذا هو يلمسها ويذوقها ويشمها، مهتديا بحواسه، حتى يقنع ويتأكد مما يراه، قبل أن تصير شيئاً عادياً، لا يسترعي اهتمامه بعد أن يدرسها ويألفها. لذلك كثر وصفهم للورد، والنسرين، والجلنار، والخوخ، والتفاح، والبرقوق، والموز، والقصور والحدائق، وصفاً مبنياً على الحواس لا يتعداها. وكانوا في ذلك معذورين في المبدأ. حتى إذا انقضى عهد الدهشة والاهتمام بهذه الظواهر تدرج وصفهم الحسي، وأصبح أقرب الى الشعور النفسي، منه إلى النظرة الحسية. وإن يكن ذلك كله بمقدار. لأن طبيعة بلاد العرب "الصحراء" ظلت عاملاً معاكساً للعوامل الأخرى، يضعف المؤثرات الجديدة، التي طرأت على النفس العربية، فأبطأ لذلك التدرج في سبيل العمق والتركب والنظرة النفسية... ولنضرب على ذلك مثالا:

فبلاد العرب مع ازدحامها بالجبال والهضاب، واعتراضها الرجل العربي في رحلاته وتنقلاته. لم تستلفت انتباهه العميق، ولم تستطع أن تخرج صورة رائعة، كما أخرجتها في بلاد الاندلس على لسان ابن خفاجة، حين يصف الجبل:

وأرعن طماح الذؤابة شامخ
يطاول أعنان السماء بغارب

يصد مهب الريح من كل جانب
ويزحم ليلا شهبها بالمناكب

وقـــور على ظهـــر الفـــلاة كـــأنه

طوال الليـــالي ناظر فـي العـــواقب

أصـــخت اليـــه وهـو أخـــرس صـــامت

فـــحـــدثني ليل الســـرى بالعـــجـــائب

فـــقـــال: ألا كم كنت ملجـــأ فـــاتك

ومـــــوطـن أواه ومـــــوئل تـــائـب

وكم مـــــر بي من مـــدلج ومـــؤوب

وقـــال بســـفـــحي من مطي وراكب

ولاطم مـن نكب الـريـاح مـــعـــاطفي

وزاحم من خـــضـــر البـــحـــار جـوانبي

فـــمـــا كـــان إلا أن طوتـهم يد الردى

فـطـارت بـهـم ريـح الـنـوى والـنـوائـب

فـمـا خـفق أبكي غـيـر رجـفـة أضلع

ولا نوح ورقـي غـيـر صـرخـة نادب(١)

ومـــا غـــيض السلوان دمـــعي وإنما

نزفت دمـــوعي من فـــراق الحـــبـــائب

* * *

فـــسلي بما أبكى وســـرى بما شـــجى

وكـان علي ليل الســرى خـيـر صـاحب

وأســـمـــعني من وعظه كل عـــبـــرة

يـتـرجـمـهـا عنه لســـان الـتـجـارب

---

(١) سنعقب على هذين البيتين.

فـــقلت وقـــد نكبت عنه مطيـــتي

سـلام. فـــانا من مـــقـــيم وذاهب

هذه الصورة العميقة الهادئة، لم تكن لترتقب في الشعر العربي ببلاد العرب الأصلية، ولم نكن لنطمع يومها أن نجد نظيرها إلا في بلاد كبلاد الاندلس وما يماثلها، حيث الطبيعة عميقة، ذات ألوان عدة. ثم ان الاطمئنان هكذا الى الجبل، ومناجاته، والأخذ منه والعطاء، كل ذلك لا يكون إلا إذا كان جبلا مأموناً يقوم وسط العمران كجبال الأندلس، فلا خوف فيه. أما الجبال في صحراء العرب، فهي مخوفة مقطوعة، لا يطمئن سالكها اليها، بل هو يعاديها وينفر منها، فليس طبيعياً أن يناجيها، أو يستمع لها حديثاً، غير حديث الذعر. الذعر الذي قد لا يمهله أن يتحدث! ولو كان غير الشاعر العربي السطحي الاحساس لحدثنا أيضاً عن هذا الذعر في نفسه، والخيالات والأوهام المتشابكة في خاطره.

ومع إعجابنا بابن خفاجة في وصفه هذا الجبل، فانا نأخذ عليه في بيتين من قصيدته، تمحله وتعليله وهما:

فـمـا خـفق أيكي غـيـر رجـفـة أضلع

ولا نوح ورقي غـــيـــر صـــرخـــة نادب

ومـــا غـــيض السلوان دمـــعي وإنما

نزفت دمـــوعي من فـــراق الحـــبـــائب

فالجبل هذا الرائع الفخم الوقود على ظهر الفلاة...الخ. ونوح ورقه صرخة نادب، وهو ناضب الماء لأن دموعه نزفت على فراق حبائبه، وليس السلوان هو الذي غيض ماءه! وهو تمحل وتكلف يفسد هذا النسق. وتلك ظاهرة في ابن خفاجة الأندلسي تذهب بكثير من روعة شعره.

وعلى أي حال فقد عرفنا من هذه القطعة أثر الطبيعة في الشاعر

وموقفه منها، ونود أن نذكر مثلاً آخر يبين موقف الشاعر من الطبيعة في بلاد الأندلس في قول حمدونة:

وقـــانا لفــــحـــــة الرمـــضـــــاء واد

سـقــاه مــضــاعف الغـيث العــمـيم

نـزلـنـا دوحــــــه فــــــحـنا عـلـينا

حـنو المرضـــــعـــــات عـلـى الفطيم

وارشـــــــفـنا عـلـى ظمـــــأ زلالا

ألــذ مــن المــدامــــــــــة لـلـنـديم

فهنا صداقة بينها وبين الطبيعة، لانها تحنو عليها وتؤنسها. أما في صحراء العرب، فالشاعر عدو للطبيعة لا يألفها ولا يأمنها. وليس بينه وبينها الا القطيعة والجفاء.

وركب كـــــأن الريح تطلب عندهم

لـهـا "ترة" من جـذبهـا بالعـصـائب!

فالطبيعة عدوة تطلب ثأرها. وهذا أحد العوامل التي جعلت الشعر العربي بعيد الاتصال بالكون، متجافيا عن الطبيعة، يعادي بعضه بعضاً كما قدمنا.

عودة الى تناسق الخيال:

والآن نرجع الى الذوق في الشعر، والتئام الخيال في القصيد، كنا نقرأ في قصيدة للاستاذ "محمود عماد" رثاء للفقيد العظيم سعد زغلول، والاستاذ عماد في نظرنا صورة للشاعر الصادق الاحساس الملهم الفطرة، الذي ندعو اليه. وان كنا سنذكره هنا في سقطة من سقطات الشاعر. وفي هذه القصيدة يقول وصفاً للجماهير العائدة بعد دفن الزعيم:

هالوا على الامل التــراب واقـــبلوا

يتــبلغــون بعــبــرة وقــتــام

مــتظلعين على الطريق كــأنما

كــانوا بمجلس نشــوة ومــدام

يتــذاكــرون عــهــود ســعــد، بينهم

مــثل الكهــول تعــيــد ذكــر غــرام

وهي صورة صادقة عميقة لهذه الجماهير، يذكرها كل من حضر منا ذلك المشهد الرهيب، وفي "متظلعين على الطريق" وصف دقيق لذلك الألم الذي يترنح صاحبه، ويتظلع على الطريق. ولكن تلك الروعة الضافية، قد أفسدها علينا التشبيه. "كأنما بمجلس نشوة ومدام" لانها مهما دلت على الاعياء والذهول. فهي تشير من طرف خفي بالاستهتار والخفة، التي تكون في السكارى، مهما كانوا ذاهلين محطمين، وهو ما لا يليق بتصوير ذلك الهم العارم المخيم على الذين:

هالوا على الأمل التــراب وأقـــبلوا

يتــبلغــون بعــبــرة وقــتــام

هنا صورتان يبعثهما خيال الشاعر: إحداهما واضحة وهي صورة الألم، والأخرى مستخفية تلمح عن بعد وهي صورة النشوة وهما صورتان غير متناسقتين في الاحساس الدقيق.

نعم: إن الشاعر لم يقصد من الصورتين الا إحداهما. ولكن ما ذنبنا نحن إذا كانت الصورة الأخرى تتراءى لنا عن بعد فتفسد علينا الصورة المقصودة؟ ونحن لا نعرف التسامح في هذه الناحية ولا نميل لتصيد المعانير.

وشوقي إذ يقول عن أبي الهول:

إلام ركــــوبك مــتن الرمــــا

ل لطي الأصــيل وجــوب الســحــر؟

إنما يرتكب الغلطة نفسها بل أكثر، لأن أبا الهول الرائع الصامت الرابض الجليل، لا يوحي الا بالوقار الدائم، والجلال الرائع، الوقار الذي يتعارض مع صورة الحركة التي تتمثل للذهن من "طي الاصيل وجوب السحر" فهو لا يطوي ولا يجوب، ولكن الأصيل والسحر هما اللذان يمران به، وهو صامت ساكن رهيب.

ومثل هذا محتمل، وهو كما رأيتم يحتاج الى دقة في بيان زيفه لا يلتفت اليها كل انسان، ولكن هناك صورة من فساد الذوق، تلمسها الأيدي، وتراها العيون! ذلك أن تجد بعض الأحيان شاعراً يرثي فقيداً، يقيم له الدنيا ويقعدها، ثم تجده ينتقل بك فجأة من هذا الوسط الزاخر بالحزن والفجيعة، ليمدح نفسه، ويفيض في وصف شعره ومتانته ومقدرته...! فلا تحس إلا أن هذا القائل دجال مهرج مزيف العاطفة، لا يحسن حتى التزييف، لأن الطبيعة الانسانية الصادقة، لا تفكر ساعة الحزن الفاجع، في أشياء شخصية حقيرة، لا تكون الا ساعة النشوة والفرح والسرور، وفي مثل هذا فوق تزييف العاطفة، سوء ذوق، وحقارة نفسية، لا تفرق بين موضع الغناء، وموضع العويل، وهو شيء لا نستطيع قبوله شعراً، بل لا نقبله إحساساً من مجرد إنسان!

ترى لو أنك في مأتم، وجلس أحد الحاضرين، ليمدح نفسه بما شاء، وليذكر فعاله المدهشة، وجرأته الخارقة، أو ليتباهى بملبسه وحسن بزته! بينما الجميع يتحدث في الفجيعة، وفي النكبة التي حلت بالاسرة. ترى كنت تطيق أن تصبر على هذا المشعوذ حتى يتم حديثه هذا الزري الزائف؟ فاذا كنت لا تصبر على مثل هذا الخليط من فرد عادي، فكيف تصبر على شاعر يقف لرثاء زعيم أمة كمصطفى كامل، فيقول مثلاً:

وأنا الذي أرثي الشموس إذا هوت
فتعيد سيرتها من الدوران

أو يصف نكبة دمشق وقد هدمها الفرنسيون بمدافعهم، وبات الاطفال والنساء في العراء، ثم يقول:

رواة قصائدي. فاعجب لشعر

بكل محلة يرويه خلق!

ألأن هذا شعر، وذلك كلام، تطيق أن تسمع هذا، ولا تطيق أن تسمع ذاك؟... شعرك؟ وما شعرك يا شوقي بك حتى تذكره وتفتخر به، والناس في شغل عن مثل هذه السفاسف، بالفجيعة الداهمة؟!

ولا أريد أن أفيض في أمثلة من هذا النوع فأنتم كثيراً ما تقع أنظاركم على مثل هذا النوع من الرثاء الآن، من اولئك الذين خصصوا انفسهم لرثاء كل راحل كالنادبات المأجورات. وتوديع كل مسافر، واستقبال كل قادم كخدم الفندق. لأنهم فقدوا شخصياتهم التي يعتزون بها. فليس كثيراً بعد ذلك أن يفقدوا الشعور الانساني والذوق الملهم، والاحساس النبيل.

التعبيرات الشعرية

الاساليب البراقة:

بعد هذا ننتقل الى التعبيرات في الشعر. ولسنا نريد أن نقول: إن ألفاظا بعينها، أو تراكيب خاصة، تليق بالشعر وأخرى لا تليق، فنحن آخر من يفكر في الصياغة، وآخر من يعتقد أن للتراكيب قيمة في تقدير الشعراء، الا بمقدار ما تؤدي من احساس، وتصور من شعور. لا بل اننا لننقم - الى حد محدود - على هذه الاساليب البراقة، التي كانت سبيلا لاخفاء ضعف الشعور، ونضوب الاحساس عن أعين الجماهير، بل أعين كثير من المشتغلين بالادب واستطاعت بفخامتها الزائفة، أن ترفع الى مصاف الشعراء العظام دجاجلة مهرجين.

ننقم على هذه الاساليب البراقة، لانها كانت مخبأ للصوص الشعر، يحتمون به، ويأتون بالمعنى الحقير، والاحساس النافل البسيط، فيحوطونه بهذه الزخارف البراقة، فاذا هو أمام العادي من الناس شعر، يقدس صاحبه ويعظم، ويجيء النشء الجديد فيرى من تقديس الجمهور لذلك الشاعر المزيف، ما يحمله على دراسة ما أنتجه، دراسة المعجب، الغافل عن العيوب، فتفسد فطرته لتشبعها بهذا السخف، ويسير في طريق التزييف الشنيع.

التعبير الشعري والتعبير النثري:

لسنا نريد إذن أن نتحدث عن الألفاظ والتراكيب، ولكن نريد أن نتحدث عن التعبير الشعري من ناحية تصويره للمعاني والاخيلة، وفي هذه الناحية يتميز التعبير الشعري عن التعبير النثري فيحسن أن يكون مجملاً لا مفصلا، بحيث يريك جانبا من المعنى أو الصورة. ثم

يدع لذهنك أن يستلهم بقيتها، ويترك لخيالك أن ينطلق فيكمل ذلك الجانب من الصورة. حتى لا يأخذ على خاطرك الطريق ولا يقف به أمام التعبير المسهب المبسوط، وهذه ميزة الشعر على النثر، ولعل هذه الميزة مستمدة من طبيعة الشعر الذي يخاطب العاطفة المبهمة أكثر مما يخاطب الفكر المحدود، العاطفة التي لا تعرف القيود ولا التحديد، ولكنها تتيه في كل واد، مع ملاحظة التناسق والالتئام، وهذه العاطفة تقف جامدة عند التعابير المفصلة التي تبسط كل جزئية، لانها تفقد وظيفتها، وهي إدراك الغائب من الحاضر، والتدرج من الجانب الظاهر الى الجوانب المحجبة.

وإني لأذكر على سبيل المثال قول عمر بن أبي ربيعة:

إن خير النساء عندي طرا
من تواتي بوصلها ما هوينا
فاذكري العهد والمواثيق منا
يوم آليت لا تطيعين فينا

فان "آليت لا تطيعين فينا" بهذا الغموض الذي أنتجه حذف المفعول، فيها من الروعة ما فيها. ولكنه أفسد هذه الروعة المبهمة، فقال بعد ذلك:

قول واش أتاك عنا بصرم
أو نصيح يريد أن تقطعينا

وقد كنا في غنى عن ذكر المفعول، الذي لم يأتنا بشيء جديد من عنده، فقد فهمنا من "يوم آليت لا تطيعين فينا" أنها لن تطيع "قول واش ولا نصيح" وأحسسنا ما هو أكبر من ذلك، وهو أنها غير مستعدة أن تستمع مجرد استماع لمن يحدثها فيه!

وقريب من هذا قول "عبد العزيز عتيق" عن طفل:

ملك أنت مثقل باهاب

كيف يرضى الملاك ذاك الاهابا؟

وبينما نحن في عالم أخر غير العالم الانساني باجمعه، نهوم مع هذا الطفل، أو هذا الملاك، في عالم الملائكة الجميل، بينما نحن كذلك اذا هو يهبط بنا الى الارض فيقول عن هذا الطفل:

لك قلب عن الرذائل عف

ما ألفناه أن يرى الحق عابا

أهذا فقط؟ أكل ما هنالك أن قلب هذا الطفل، يعف عن الرذائل ولا يرى الحق عيبا؟ وكان منذ لحظة ملكا، لا يعرف ما الرذائل حتى يعف عنها، ولا ما الحق والباطل، حتى لا يستنكر الحق؟ فقط لا يستنكره!

لا. لا. يا سيد عبد العزيز، اننا لن نقبل منك هذا، وما كان أجدرك أن تتركنا في عالم الطفولة البريء، أو عالم الملائكة الوديع!

وفي مثل هذا الخطأ الدقيق، وقع "علي عبد العظيم" إذ يقول عن قلبه:

كان بالامس روضة تتجلى

في رواء أنعم به من رواء

ثم لا يدعنا نفهم ما في هذا التشبيه من حياة وروعة، وأن نحس الحياة النابضة في قلبه، كما تنبض في الروض، وأن الآمال التي تزدهر فيه، انما تنبت كالزهرة الندية العبقة...الخ. لا يدع خيالنا في نشوته فيحدد لنا المجال بقوله عن هذه الروضة التي شبه بها قلبه:

جمعت بين لا بيتها فنونا

من ضروب الاثمار والأزياء

من ورود تكاد تقطر حسنا

يفعم القلب بالسنا والسناء

ويذهب يعدد لنا ما في روضته: من بطاح، وغصون، وثمار، وغدير، ونسيم، فاذا نحن أمام منظر عرفنا آخر ما به، فلا شوق فيه لمجهول، بل إذا بنا قد نسينا قلبه وما فيه، لنذكر هذه الروضة التي يصفها، ناسين أن قلبه فقط يشبهها!

شعر الغزل والتعبير الشعري:

وثمت ناحية أخرى في التعابير الشعرية، نضطر للحديث عنها ولا سيما في شعر الغزل، اذ ان جماعة من المتأدبين، ملكيون أكثر من الملك! بمعنى أنهم ينقدون في الشاعر استخدام تعبير خشن وهو يتغزل، ذلك أن الغزل في نظرهم، لابد فيه من التأنيث والرخاوة والرقة، التي يكاد صاحبها يتلاشى من اللطافة!

ولا ندري مم نشأ هذا الاعتقاد؟ - والحب عاطفة انسانية، تكون هادئة وثائرة، راضية وحانقة، وهي في كل حالة تحتاج الى تعبير مناسب - ؟ وأغلب الظن أن ذلك نشأ في أواخر أيام الدولة العباسية يوم كثر التطري والمجون، وفقدت العواطف قوتها الروحانية فصارت للمجاملة، ولمجالس الانس واللهو، التي لا بد فيها من التطرف والتخنث في كثير من الظروف!

لا يا حضرات! إن الحب ككل عاطفة قد يثور، فيجرف ويحطم، في قسوة وعنف، فلا يكون ذلك عيباً فيه، وإنا لنعجب جد الاعجاب بقول "عبد العزيز عتيق":

علمتنا مواقف الصد منكم
كيف نقسو عليكم ثم نقسو!
فلنا عن مجانة الامس شغل
ولنا في تتابع الهجر درس!

كم صبرنا لهجركم كم صبرنا
فاذا القلب جامد لا يحس!
واذا اليأس أتلف القلب حتى
لم يعد فيه للتصبر قوس
وكأي من ليلة قد قضاها
كلما خف يأسه عاد يأس

* * *

أيها المرسل الدموع غزاراً
لا تهجني فلم يعد فيك انس
أئذاً ما قسوت هجرا بهجر
تتلوى كأنما بك مس؟!
لا تحاول أن تعطف القلب يكفي
أن قلبي لحبك اليوم رمس:
ان دمعا تريقه اليوم ختلا
لهو دمع في شرعة الحب بخس

نعجب بهذه الأبيات، على رغم ما فيها من قساوة في التعبير لأننا ندرك العاطفة التي انبعث عنها، وهي عاطفة طبيعية، توجد في كثير من الأحيان.

وكذلك نعجب بقول "علي عبدالعظيم"، وهو أقل من هذا قسوة:

وضح التصنع وانجلت أوهامي
فدعي رياءك واذهبي بسلام
وذري الخداع فقد مضت أيامه
وأفقت من نومي ومن أحلامي

وعلمت أنك في لبابك غير ما

خلعت عليك جلالها أوهامي!

فاليك عني واخدعي غيري كما

خادعتني في سالف الأيام!

* * *

واضيعة الأشعار فيك نظمتها

فكأنها نظمت على أصنام!

لا تذكري الاخلاص. أنت قبرته

في مهده بالرجس والآثام

أين الوفاء؟ وأين منك عهوده؟

ضيعتها! وحنثت في الاقسام!

ذهب الوفاء وأهدرت حرماته

فعلى الوفاء تحيتي وسلامي

لا بل. ان هناك قسوة أشد من هذه وتلك، تدخل فيها شعور الشاعر بكرامته، فثار لهذه الكرامة، في الوقت الذي كانت عاطفته أيضاً في ثورتها:

اذهب وخلفني هنا متألما

لا تلقني سمحاً ولا متجهما

اذهب وخلفني تذوب حشاشتي

ويبض قلبي من قرارته دما

اذهب فلن أشكو اليك عواطفي

يوما ولن ألقاك الا أبكما!

أرخصت حبي اذ بثثتك بعضه

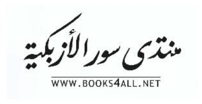
فليبق مكبوحا اذن متكتما!

ان كان بث الحب عندك مأثما

فكذاك عندي سوف يغدو مأثما!

في هذا قسوة ولا ريب، ولكنها قسوة الغاضب لكرامته وحبه، وهي أدل على التعلق بالحب والتفاني فيه، بخلاف مايفهم أسيادنا الحذرون المتلطفون!!!

ان الشاعر انسان، وانسان حساس، وهو في عواطفه غير خاضع لهذا النوع من التقيد، الذي يريدونه عليه، وذلك التكلف الذي تحتمه مجالس الانس، وحفلات السمر، وان للشاعر شخصيته، التي قد تتبدى في مثل هذا الغضب لعاطفته، أكثر ما تتبدى.



شخصية الشاعر

وهذا الحديث يجرنا للتحدث عن شخصية الشاعر، فهو كما عرفناه شخصية ممتازة حساسة، شديدة الحساسية، عميقة الشعور.

والمفروض بعد ذلك أن للشاعر مكانه الممتاز، بين الداعين الى المثل الأعلى. في أية صورة من صور الدعوة. وهو اذن سيؤثر في الوسط الانساني المحيط به، ويقوم بمهمة التعارف بين الجماهير والحياة الخفية الاسرار، بما يطلعهم عليه من صور فنية لهذه الحياة.

والمعروف في الدراسات النفسية، أن الانسان لا يستطع التأثير في غيره، ما لم يكن ذا شخصية واضحة يعتز بها، ولا يفرط فيها. شخصية واضحة تستطيع الاقناع الصامت، والاغراء بالمتابعة. وما لم يكن شاعراً بشخصيته هذه، عن طريق مباشر أو غير مباشر حتى يعرف لها قيمتها، ويعتمد عليها في مهمته التي يؤديها.

والذي نقصده بشخصية الشاعر، لمحنا الى جانب منه في أول الحديث، حينما أردنا أن يصور لنا الشاعر الصور والاحاسيس، كما يراها هو ويشعر بها، لا كما تراها سائر العيون، وأن يتعمق في بواطنها فيكشف لنا المخبوء منها والدفين، ثم يطفو بهذا الذي عثر عليه، فاذا هو في متناول الافراد العاديين، وعندئذ تكون للشاعر قيمته بين هؤلاء الذين خصته الحياة ليخاطبهم بلسانها، ويكشف لهم عن أسرارها وخفاياها، وحبته من المشاعر والمدارك ما يكفل له أداء واجبه على الوجه المطلوب.

نفهم من هذا أن الاحساسات النفسية للشاعر، هي مجاله في التعبير، لأن هذا الاحساس، هو الذي يتميز في كل شاعر

عنه في الآخر، أما الألفاظ والمعاني فهي هباء ما لم تتصل بذلك الاحساس وما لم تكن منبعثة عن شعور. وأنا حين أنظر في الشعر، لا أسأل: هل حسنت معانيه؟ هل راقت أخيلته؟ هل رقت ألفاظه؟... لا أسأل شيئاً من ذلك! ولكن أسأل: **هل كان هذا الشعر صادراً عن إحساس نفسي**، وتأثر وجداني؟ هل هذه المعاني والاخيلة منتزعة من تلك النفس أصيلة فيها، أم هي لقط من هنا ومن هناك، لا تتصل بنفس الشاعر، ولا تمت الى شعوره بسبب؟ ثم هل هذا الاحساس سليم عميق دقيق، لا يكتفي بظواهر الاشياء بل يدرك خفايا الصلات أم هو إحساس سقيم، أو سطحي خاطف؟ وبعد ذلك كله أسأل هل استطاع ذلك الاحساس أن يختار المعاني المناسبة له؟ وهل صورت هذه المعاني في ثوب لائق بها من الالفاظ؟... وذلك في نظري هو الترتيب الصحيح لما نتطلبه في الشعر بحسب الأهمية!

إن الشاعر انسان ممتاز، فهو صورة من صور الحياة السامية، فاذا هو استطاع أن يصور لنا نفسه وعواطفه، يكون قد أخرج لنا صورة من الحياة النابضة الحساسة، صورة مميزة عن بقية الصور، نزين بها متحف الحياة الجامع، صورة واحدة وكفى، لأنه لا يستطيع أن يخرج لنا جميع الصور، ولكنه يتعاون مع اخوانه الفنانين جميعاً، في تزيين هذا المتحف، لأن كلا منهم سيصور لنا نفسه، فاذا نحن في النهاية حاصلون على صور شتى، متباينة المظاهر متحدة الاصول واذا بنا قد كسبنا بهؤلاء الشعراء كسبا جديداً، لأنهم أرونا من الحياة الداخلية ما لم نكن نراه، وأمدونا بفلسفات مختلفة في الحياة.

فأما اذا كان كل منهم سيتناسى شخصيته، ولا يعنى بتصوير شعوره، إزاء المشاهد والحوادث. فالذي سنحصل عليه منهم، صور متشابهة، ونسخ مكررة معادة. كما يحدث لو أن عدة مصورين "بالفتوغرافيا" أخذوا صوراً لمنظر أو مناظر. كان يغنينا عنها نسخة

واحدة. وكذلك كان يغنينا في هذه المهمة شاعر واحد من هذه الكثرة الصاخبة التي تقول لنا كل يوم جديداً من الشعر، لا جديد فيه! وفي هذه الحالة تكون الحياة عابثة في إخراج هؤلاء جميعاً ليتغنوا بقيثارة واحدة، ونغمة لا تنوع فيها على ممر الدهور. ويالضيعة الشعر والشعراء، ان كانت كل مهمتهم في الحياة، أن يخرجوا لنا صورة واحدة، ونسخاً مكررة، بعد هذا المجهول الطويل!

وقد يقال: إن هذه دعوة الى الشعر الشخصي - الغنائي - الذي هو أول مراتب الشعر، والذي لم يعد يكفي وحده الآن للتعبير عن الحياة، دون الشعر القصصي، والشعر التمثيلي، وهما المقدمان في هذه العصر، وان يكن الشعر العربي لم يأخذ منهما الا بنصيب قليل.

ومثل هذا القول خطأ في فهم ما نريده من وضوح شخصية الشاعر، وتميز احساسه فيما يخرجه لنا من صور الحياة، ذلك أنه ما من شعر قصصي أو تمثيلي. الا وعليه مسحة من نفس قائله الشاعر وكيفية نظره الى الحياة، وفهمه لطبيعة الحوادث والاشخاص الذين يحللهم أو يقص عنهم، والا لأصبحت جميع الروايات التمثيلية والقصصية سواء في تحليل الحوادث والشخصيات. ولم يقل أحد بذلك، ولا يمكن أن يقول، وها هوذا الفن القصصي، والفن الروائي يختلفان بالنسبة للأمم، فضلا عن الاشخاص. فالفن الانجليزي غير الفن الفرنسي وكلاهما غير الفن الروسي الذي أخذ يظهر في جو مصر، ذا شخصية قوية. فالشخصية واضحة في فن كل أمة. ثم ان فناني كل أمة يختلفون فيما بينهم باختلاف شخصياتهم.

الشاعر والعصر:

ولعل جماعة آخرين يقولون: إن الشاعر يجب أن يكون صورة لعصره، لا لشخصه. وهو لا يستطيع أن يكون كذلك، حينما يعمد الى

نفسه يستوحيها، ويصور ما يخالجه من إحساسات فردية ونزوات شخصية، لا علاقة لها بالآخرين، ولا تعبر عن الوسط ولا تترجم عن العصر الذي عاش فيه الشاعر.

وفضلا على أن الشاعر غير مقيد الا بأن يعبر عن نفسه وخواطره، دون أن يلاحظ أنه يجب أن يكون صورة لعصره أو لا يكون! فضلا على هذا القول فالذين يقولون ذلك، يقدرون أن الانسان قطعة منفصلة عن الحياة. فهو إما أن يعبر عن نفسه، أو يعبر عما يحيط به. ولا صلة بين الناحيتين! وهم يفترضون أن الانسان لا يتأثر بالوسط الذي يحوطه، الا حينما يعبر عن هذا الوسط. فأما حين يعبر عما يحس ويشعر، فهو بعيد عن تأثير ذلك الوسط!

وفي هذا الفرض خطأ واضح. اذا طبق على مجرد انسان لا بل مجرد حي من الأحياء. بله الشاعر الحساس السريع التأثر والتأثير في كل ما يحيط به من البيئات. هذه البيئات التي تكيف مشاعر الفرد العادي إلى حد كبير، وتوجهه إلى طرائق مختلفة باختلافها سواء شعر بذلك أم لم يشعر. لأن غرائزه تتأثر كما يتأثر تفكيره وكل عنصر فيه. **فهو في تعبيره متأثر بالعصر والبيئة، وكل ما يحيط به، سواء عبر عن هذا، أو عبر عن احساسه. لأن احساسه ذاته وليد هذه العوامل إلى مدى كبير.**

فالشاعر يستطيع أن يعطي صورة لعصره في الوقت الذي يتحدث فيه عن نفسه وخواطره وخلجاته. وهي صورة غير مباشرة نعم، ولكن الباحث الفني الدقيق، يستطيع أن يستخلص هذه الصورة بعد عملية التحليل.

وقد لاحظتم في كل النماذج التي اخترناها لشعرائنا الناشئين لمحة من البؤس: الصامت أو الصارخ ومن الشكوى والتخبط والحيرة. وبعضكم يعجب لهذه الظاهرة المتشائمة الشاكية المضطربة ولكن ذلك في نظرنا دليل صدق هؤلاء الشعراء وسلامة فطرتهم. فهم صورة من

النفسية المصرية العامة في هذه الفترة. فترة الانتقال والحيرة والاصطدام في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية. الاصطدام الذي تخيب فيه الآمال، ثم تبدأ في الانتعاش. ثم تصطدم من جديد!

مدوا بأبصاركم في كل نواحي الحياة المصرية. ألا ترون التصادم بين القوى الناشئة، والظروف المحيطة بها، التي تناوئها مناوأة قاسية؟ ألا تسمعون الصيحات داوية بالألم والاستنكار من كل جانب؟ فعلام اذن لا يكون كذلك الشعر؟ وهو أدق معبر عن الاحساس الدفين.

علام يغرد الشعراء بأناشيد الفرح والمراح وكيف تدب روح النشاط الطروب في الفنون؟

أنتصرنا في موقعة حربية على جيوش الأعداء؟ فيغني الجيش والشعب أناشيد الظفر والسرور؟ أفتحنا في العالم فتحاً جديداً؟ لا بل، أحصلنا على استقلالنا المغصوب؟ أنتنفس بحرية في أي جو من الأجواء؟ ألنا عظمة علمية نمتدح بمزاياها؟... ودع ذلك كله. أفلنا فقط سياسة تعليمية رشيدة! وهذا أبسط الشؤون؟!

كل ما في البلد جدير بالشكوى، وكل ما فيها يلذع بالألم. وأن التألم والشكاة، لدليل عدم الرضا، ودليل السعي لتغيير هذه الحال. وتلك عدتنا للمستقبل، وأملنا الوحيد للاصلاح المنشود.

ولو أن هذه الشكوى الدائبة صمتت اليوم أو انقلبت إلى لهو ومراح، لكان ذلك دليلاً على الموت والاضمحلال. لأن الأمة التي لا تشكو من مثل هذه الحالة، أمة لا تحس، فهي أمة في طريقها الى الفناء الرهيب: وان الذين يهزلون اليوم أو يغنون ويمرحون. هم احد فريقين: فريق اناني مجرم لا يعني

بهذه الأمة، ولا يحفل بالامها لانه في ظل نعمة، ولا علاقة بالآخرين. وفريق ميت الوجدان، ذليل الكرامة، لاتنبض به حياة إلا كالدواب والجراثيم!

ولهذا فان شعرائنا الناشئين الشاكين المتألمين، صدقوا في إحساسهم وسيتركون وراءهم صورة واضحة، لهذه الفترة الحائرة تطالعها الاجيال في حين كانوا يتحدثون عن شعورهم الخالص وعواطفم الكامنة في الاعماق.

وأقرب ما يحضرني في هذه الناحية، قطعة للشاعر الناشيء عبد العزيز عتيق، قد لا تكون جيدة السبك، ولا رائعة الاسلوب ولا عميقة التفكير، ولكنها قطعة صارخة تمثل لنا نظرته للحياة المصرية الراهنة وتحفزه للعمل على تبديلها وهي:

لمن أشتكي مصرا؟ فانني بحرها
صليت على كره فلله من مصر!
بلاد يبيت الأهل فيها على الطوى
ويحيا بها "الغربي" ينعم في الخير
بلاد يعيش الأهل فيها كأنما
هم غرباء الدار عن ذلك القطر!
ويفرح فيها الضيم. والضيم أفة
فتبصره في كل ناحية يسري
ويعجزك التنقيب عن وجه نابه
فلا تلتقي إلا بكل فتى غر
وبينا ترى الغربي قد راض فكره
جماح الدياجي واعتلى ذروة الفخر

ترانا نيـــامـــا لانـهـم بحـــادث
سـوى مـسـجـد نسـعـى له أو إلى الدير
وأقـصى اخـتـراع يشـغل الفكر أمـره
أناشـيـد لا تنفك تقـرأ في الذكـر!
ويا ليـتـه فـعل بنيـة خـاشع
ولكنه فـعل يسـوق الى الكفـر!

* * *

فـيا قـوم هبـوا وانفضـوا الجـهل عنكمـو
ونـادوا بتـحـرير العـقـول من الأسـر
من العـار أن نحـيا ونذهب مـثلمـا
بدأنا ولم نتـرك سـوى العـار والخـسـر

الشعراء المزيفون وشعراء العاطفة:

وبعد فلدينا شعراء تعدهم الجماهير في مقدمة الشعراء، تبحث في كل ما أخرجوه، فلا ترى فيه شخصية مميزة لواحد منهم، تلمح فيها طابعه الخاص، ونظرته للحياة، واحساسه بما يحيط به من مظاهر وما يخالجه من خواطر. يعبر الواحد منهم عن كل النواحي، في حين لم يعبر في الواقع عن أية ناحية! لأنه تعبير ككل تعبير، يشترك فيه الجميع. والسبب في ذلك، أنهم لم يصدروا عن تأثر، حتى يتميز احساس عن احساس، إن المعاني والألفاظ مشتركة بين الجميع، أما الاحساس فهو الذي يختلف في النفوس.

ترى لهولاء الشعراء في كل يوم قصيدة رثاء لمن يعرفون ومن لا يعرفون، ومديحا لمن خبروا ومن لم يخبروا، وقصائد في كل حفلة تقام للوداع أو للتكريم، وزلفى حقيرة للرؤساء وغير الرؤساء، تعد وصمة

في جبين الانسانية المنكوبة بتلك الجرائم.

هؤلاء جماعة فقدوا شخصيتهم، فقدانا تاماً، وجهلوا مهمة الشاعر في الحياة، فاندفعوا يرثون ويمدحون، ويهنئون ويكرمون ويستقبلون ويودعون، وهم في كل ذلك لا يحسون احساسا دقيقا فيصورونه، حتى يأخذ هذا الاحساس شكلا متميزا. وانما هو ارضاء لكل من يريد، وهو عبث دونه عبث المتسولين وخدمة الفنادق الذين يودعون كل راحل ويستقبلون كل قادم، بابتسامة ولا يفترضون لها كرامة، ولأنهم يريدون أن يشتهروا، فلا بد لهم في كل مناسبة من قصيدة، وفي كل حفلة من يتيمة!

ولذا كان هؤلاء مجرمين في حق الشعر والشعراء. بل في حق الانسانية، فأشد إجراماً منهم أولئك الذين يصفقون لهم ويهتفون وأولئك الذين يعتبرون الاكثار في كل مناسبة قدرة خالقة، ولا يفهمون من الشاعر الا ذلك المهرج الالعبان، الذي يستقبل القادمين ويودع الراحلين، ويصف كل زلزال في بلاد الواق واق، وكل نكبة في المريخ! والذي يريد ان يتغزل فيتخيل محبوبة هاجرة أو راضية، ويروح يحدثها عن الدموع المسفوحة، والفلذات الدامية، ولا دموع هنالك ولا نشيج!

واذا كان لنا أن نتسامح ولو قليلا، مع جماعة النقل في التصوير والسطحية في الشعور، فانا لا نستطيع بحال أن نتسامح مع هذه الطائفة الخيرة، التي تتحدث لا عن شعور، وتنشد لا عن عاطفة وتعد نفسها من الشعراء، وهي محرومة من صفات الآدميين!

وان بعض هؤلاء، ليحاول أن يعتذر عن هذا السقوط، فيقول لك: أليس الشعر موهبة تستخدم كبقية المواهب فيما ينفع صاحبها؟ "ينفع"! بهذا التعبير، فهو سلعة تجارية في نظرهم، في الوقت الذي يفهم شبان ناشؤون، أن الشعر أسمى من ذلك وأعز، وان الشاعر لا يكون حتى يسمو على هذا العرض الزائل الزهيد، يقول عبد العزيز

عتيق" عن شعره:

قلت أواه ليس ذلك شـــعـــراً
انه لقلب ذائبـــا من حنان

ويقول أسفا حزينا على أن الناس لا يقدرون الشعراء، ولا يسمحون لهم بالتغني والتغريد:

يا ضـيـعـة الشـعـراء قـد
هانوا ليس لهم مـحـب!
أنغـامـهم خـفـتت وكـا
نت مـا أرق ومـا أحب!

ويقول "علي عبد العظيم" كشاعر يفهم واجبه:

دعوني أذع في الناس ما قد بدا لي
فلست بتقييد القرائح راضيا
سأطلق نفسي من قيود ثقيلة
تحرم ادراك الحياة كما هيا
وأسموا فأستوحي الحقيقة لبها
وأنظمه شعراً يهز الرواسيا
وأسكب نفسي في ثنايا سطوره
وأجعل حبات القلوب قوافيا
وأزجيه شعراً يملأ النفس روعة
ويصلح أخلاقاً ويمحو مساويا
يرتله الشادون لحنا منسقا
ويدرس فيه الباحثون حياتيا
فما هو ألفاظا عنيت بجمعها

وان هؤلاء الا شـــعـــبـــة من فـــؤاديا

نعم فمـا الشعـر ألفـاظا، وان هـو الا احسـاس ملهم، وفلذات من القلوب:

انما الالـفـــاظ والمعنى قـــشـــور

غـــيـــر احـــســـاس رقـــيق ملـهم

ويقول محمد الداخلي الهواري في قطعة دامية:

أتعـــجب بي وتجـــهل أن شـــعـــري

صـــــدى لمواجع القلب الحـــزين؟

وأنك حـين تـســـمـــعـــه غناء

أحس به جـحـيـمـا يحـتـويني

وتـطـرب مـنـه لـم تـعـلـم بـأنـي

خـــلال نشـــيـــده أنعى شـــؤوني

كـمـحـتـضـر تودعـه الأغـاني

ويسـكر سـمـعـه نغم الحنين

فالشعر هنا قطعة من النفس يقال لحاجة تئز فيها، لا للعبث أو الافتخار! واني لمبشر بالشعر الناشىء مادام سائرا في هذا الطريق.

الفهرست

